

الاستاذ جبر ضومط

ومباحثه في نشوء اللغة العربية

مقدمة للمرحوم الدكتور صروف

من الخطبة التي اعدتها قبيل وفاته لتلى في بويل الاستاذ الذهبي

للشيخ أوقات يود فيها انقضاء الاجل ويقول مع لبيد
ولقد سئمتُ من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس كيف لبيدُ
وهي أوقات الضعف وأوقات المرض وأوقات فقد الاخلاء والاقارب . وله أوقات
غبطة وحبور أوقات يرى فيها تحقيق أماني الشباب أو يجني ثمر ما غرسه زمن الكهولة
أو يسمع عن فوز رفاقه وأصدقائه ومحبيه
كل ذلك مرَّ عليَّ وأبقى أثره في نفسي . تولاني الضعف في سببي حتى صرت
أتجنب المجتمعات ومرضت في بداية العام الماضي حتى قطع الرجاء مني وفقدت والديَّ
وأخويَّ وثلاثاً من أخواني وجملاً غفيراً من تلاميذي وأصدقائي
ولكن هذه المساويء تقابلها نعم كثيرة حيثُ بها ومنها ما دعاني الى كتابة هذه
السطور وهو أن أحد تلاميذي في الصغر ورفقائي في الكبر بلغ بسعيه وجدته درجة
أهَّلته لأن يحتفل به عارفو فضله في بلاده وفي سائر البلدان حيث انتشر تلاميذه
وقرئت كتبه وعرفت آراؤه العلمية

صديقي الاستاذ جبر ضومط بل الفتى جبر ضومط رأيتُه منذ ثمان وخمسين سنة .
ذهبت الى برج صافيتا أو صانيتا البرج في صيف سنة ١٨٦٩ وأقيمت فيها أكثر من شهر
ولا تزال صورتها في ذاكرتي لانها ممتازة ببرج شاهق مبني بحجارة جافية لم أرَ أكبر
منها الا الحجارة الكبرى في قلعة بعلبك . ارتفاع هذا البرج أكثر من ثلاثين متراً أو
نحو ارتفاع برج الساعة في هذه الجامعة وطوله أكثر من ثلاثين متراً وعرضه نحو
عشرين وثمناً جدرانها — وهنا المزية الكبرى — ثلاثة أمتار الى أربعة حتى أن
السلم الذي يصعد به الى طبقته العليا والى سطحه قائم في باطن جدار من جدرانها
وحول هذا البرج مبان نخمة حجارتها كبيرة منحوتة باقية من قلعة قديمة بها بناها
الصليبيون اما البرج فلعنه بني في عهد الفينيقيين او الرومان

بناءً مثل هذا ترسم صورته في الذهن ولا سيما في ذهن الشاب قبلما تكثر مشاغل الحياة وترسخ معه صور كل ما حوله او يتصل به . وقد مرّ عليّ الآن بأن وخسون سنة ولا ازال اتذكر صافيتا وكل ما رأيته بها او الذين لقيتهم من سكانها . أفلا يؤثر منظر البرج العالي في نفس ولد من ابناء تلك القرية يراه كل يوم من حين أميطة عنه الهائم ويحملة على طلب المعالي

كانت اقامتي في غرفة علي تلي مقابل للبرج والى جانبها مدرسة صغيرة لاولاد القرية انشأها المرسلون الاميركيون يعلم فيها رجل من اهل السقي وبين تلامذته ولد لم انس صورته لانه انتقل بعد ذلك الى مدرسة عبيه فكنت اراه فيها ثم صار تلميذاً لي في هذه الجامعة وخلفني في تدريس العربية وآدابها . ولم يقنع بالخطط التي سار عليها أسلافه بل اختط خطة مبتكرة في الدرس والتدريس

هذه مقدمة طويلة اطول من كل مقدمة كتبها . ولكن لا تخافوا ان آني بعدها بكلام مسهب لانني اعلم ان الوقت محدود ولو كان الموضوع حقيقاً بالاسباب الاستاذ جبر ضومط لو اكتفى بنظم الاشعار كما كان ينظم بعيد رحلته الى السودان او بتعليم الصرف والنحو والبيان كما يعلمها كثيرون غيره لما استحق في رأيي ان يحتفل به هذا الاحتفال ولو قضى في التعليم ستين سنة لا خمسين لما وجدت سيلاً لالقاء هذه الكلمة عنه . ولكنه عمل ما هو اهم من ذلك كثيراً بحث في نشوء اللغة العربية بحثاً احسبه مبتكراً عندنا ومهداً لعمل اعداه من انفع الاعمال المشتغلون بالعلم كثيرون ولكن قل منهم من بقي اثرأ يذكر به . فالذين اشتغلوا بقواعد العربية منذ الف ومائتي سنة الى الآن يمدون بالمثلث او بالالوف ولكن قلما تذكر منهم غير سيبويه والمبرد والكسائي وابن جني وابن مالك وابن هشام وأمثالهم من الذين وضعوا قواعد الصرف والنحو ومع ذلك فعمل هؤلاء كلهم مقصور على الجمع والتبويب وما منهم من بحث عن اصل العربية وكيف نشأت كلماتها وتصاريفها . فاننا صرنا نعلم في هذا العصر ان لغات البشر التي تعد بالالوف كانت في زمن متوغل في القدم لغة واحدة قايمة الكلمات بل الاصوات ثم تفرقت طوائف وكل طائفة تشعبت شعباً كثيرة ودخل المزج والتحت في كلماتها حتى بلغت ما بلغت وهذا شأن العربية ولكنني لا اعلم ان احداً اطلق هذا البحث على العربية من ابناءها قبل الاستاذ جبر ضومط الذين تعلموا الصرف والنحو وعلموها لا يحصى عددهم ولكنني لم ار لاحد بحثاً

في كيف بني الفعل جلس على فتح آخره ولا كيف تدخل عليه الهمزة فيصير متعدياً بعد ما كان لازماً ولا من اين ات التاء التي تلحق الفعل الماضي فتدل على المتكلم اذا كانت مضمومة وعلى المخاطب اذا كانت مفتوحة وعلى المخاطبة اذا كانت مكسورة . ومثل ذلك كل تصاريف الافعال مجردة ومزيدة مفردة او ملحقة بالضمائر فانها كلها بلغت صورها المعروفة بعد ان دخلها المزج والنحت مدة قرون لا تحصى . والاستاذ ضومط تمكن من البحث في هذا الموضوع وكشف الستار عن غوامض معرفته العبرانية والسريانية شقيقي العربية ولو عرف الحيرية والحبشية ل زاد توسعاً في البحث وكشفاً للغوامض فهو مثل ورز ولبل في علم الجيولوجيا وتولد طبقات الارض ومثل لامارك ودارون في نشوء الاحياء وتولد بمضها من بعض ومثل مندل في كشف ناموس الوراثة وتطبيقه على الاحياء

اليكم بضعة أمثلة من كتابه الخواطر في اللغة الذي نشره منذ اثنتين وأربعين سنة فانه وجد أولاً بالاستقراء أن الكلمات المتشابهة في مخارج بعض حروفها تتشابه في معانيها كجذع وجدع وجدم وجذم وكبض وحبط . وكهجا وهجم وكتم وتخر وخر وختل وكقطب وقطف . وارتأى أن ذلك كان سبباً لتولد كلمات مختلفة لفظاً ومشاركة معنى . ووجد أن وزن المطاوعة (انقل) مركب من لفظة أنا ضمير المتكلم والفعل المجرد فقولنا انقمست مساو لقولنا أنا غمست أو غمست نفسي . ووزن انقل أصله انقل كما يلفظه المصريون وهو مركب من ات ومعناها ذات أو نفس وهي إت في العبرانية وبت في السريانية وعليه ففعل المطاوعة مركب من الفعل المجرد وكلمة معناها النفس . اما وزن استفعل فقال انه مطاوع قياسي لوزن سفعل عند السريان ورجح أن السين منحوتة من فعل ممت يدل على الوجود المطلق ومن بقاياها ليس ولات وهما مؤلفتان من لا النافية والفعل المذكور للدلالة على نفي الحال أو الكون وعلى ذلك تكون استفعل مركبة من ثلاث كلمات وهي اس وات وفعل فتلاحمت اهماؤها مع الايام فصارت استفعل ومن هذا القبيل تعليه للضمائر فان ضمير المتكلم في العربية صورة واحدة وهو انا مفرداً ونحن جمعاً . وفي السريانية انا مفرداً ونحن جمعاً وفي العبرانية انا او انوخي مفرداً ونحن او نحن او انو جمعاً وواضح من ذلك ان لفظة نحن العربية مركبة من نا او انوخي العبرانية الحق آخرها بالنون للدلالة على الجمع

ثم يشن ان الضائر المتصلة منحوته من الضائر المنفصلة فالتاء المضمومة من

انوخي والمفتوحة من انتَ والمكسورة من انتِ والواو من همون أو هو والنون في ضربن من هنّ ونا من نحنُ وهلم جرّاً

وكتاب الخواطر على صغره جمع أكثر المبادئ الأولية التي تمشت عليها اللغة في نشوئها . وهو بحث مبتكر في العربية على ما اعلم . طرقتُه انا في السنة التي طرقتُه فيها صديقي الاستاذ جبر كما يرى في الفصول التي افشأها في المقتطف سنة ١٨٨٦ وموضوعها تولد اللغات ونحوها ولم اكن اعلم ما هو فاعل ولا هو يعام ما انا فاعل ولكي اطلقت اكثر الكلام على اللغات كلها ولم اخص به العربية ولم اكن اعرف السريانية والعبرانية حتى استعين بهما على تعليل ما وقع في العربية ولم ارب بعد ذلك بحثاً لاحد في هذا الموضوع كأن آية الحجاب سدلت عليه . الا ان ما اثبتته صديقي الاستاذ ضومط في كتابه الخواطر شبيه بما كشفه مندل في الوراثة فان مباحث هذا الراهب النمساوي التي نشرها سنة ١٨٦٦ طرحت في زوايا المنسيات مع انه كشف بها اهم الحقائق البيولوجية الى ان كشفت ثانية سنة ١٩٠٠ فهل يقوم من تلاميذ الاستاذ ضومط من يعود الى هذا البحث ويكون متضلماً من العربية والعبرانية والسريانية ومن الحميرية والحبشية والقبطية واليونانية واللاتينية والفارسية فيميط اللثام عن تاريخ كل الكلمات التي في معاجنا العربية . هذا ما ينتظر منكم يا تلاميذه ويا حريديه

قات في بدء كلامي بعد المقدمة ان الاستاذ ضومط بحث في نشوء اللغة العربية بحثاً مبتكراً ومهداً لعمل اعدّه من اقع الاعمال فما هو العمل الذي اعدّه بحث الاستاذ ضومط مهداً له

اذا كانت اللغة العربية قد نشأت كما تنشأ كل الاجسام الحية واعتورها التغيير والتبديل كما اثبت الاستاذ ضومط فلا يحتمل ان يمر الف وأربعماية سنة تبقى فيها على حالها تماماً . والواقع انه عرض لها امران جوهريان الاول انها تغيرت تغيراً كبيراً في ألسنة المتكلمين بها في مصر والشام والعراق وتونس والجزائر وبلاد العرب نفسها حتى لا يكاد ابن الشام يفهم حديث ابن تونس ولا يكاد ابن المغرب الاقصى يفهم كلام ابن العراق . الا ان هذا التباين يكاد يكون محصوراً في الكلام وقلمنا يتناول الكتابة ويحتمل ان يزول اكثره بعد ما سهلت سبل الاتصال وانتشرت الجرائد والمجلات

والامر الثاني وهو المهم انه دخل العربية كثير من لغات الأقوام الذين صارت العربية لغتهم او الذين نقلت العلوم من لغاتهم الى العربية . ولقد كان الدخيل كثيراً في العربية قبل الاسلام لانه لا يحتمل ان يتصل العرب بسكان مصر والشام والعراق

وفارس كما كانوا متصلين ولا يدخل العربية كثير من اللغات المصرية واليونانية والسريانية والبرانية والفارسية ولو خفي على جامعي العربية اصل كثير من كلماتها فحسبوا كلها من صميم العربية . وهذا بحث كثير الشؤون لا محل له الآن . ثم زاد الدخيل بعد الفتح ونقل العلوم من اليونانية والسريانية والفارسية والهندية ولولم يعلم جامعو كتب اللغة انه دخيل . ها كم قانون ابن سينا الذي ألفه في بداية القرن الخامس بعد الهجرة فقد عدت في الصفحة الاولى من جزء الاقرباذين مائة اسم من اسماء النباتات وسائر المواد الطبية فوجدت الدخيل منها لا يقل عن سبعين اسماً وقد ذكرها ابن سينا كلها كأنها اسماء مألوفة في ايامه

القرن الثالث والرابع والخامس والسادس كانت من القرون الحافلة بالعلم والعلماء كما كانت حافلة بالشعراء والادباء وكما كان العلماء من اطباء ورياضيين وفلكيين يرجون بكل كلمة اجنبية تزيد غناء العربية غناءً كان الادباء والشعراء لا يستكفون من استعمال العرب ومنذ قام محمد علي عزيز مصر وعلم بعض ابنائها في اوربا وأمر بترجمة الكتب العلمية الى العربية كما فعل الخليفة المأمون في عصره دخل العربية كثير من الكلمات العلمية ثم اتسع نطاق الترجمة حتى شمل كل انواع العلوم الرياضية والطبيعية والحقوقية والسياسية وصار على المترجمين والمؤلفين ان يحذوا حذو الفارابي وابن المقفع وابن سينا وابن رشد فيبقوا الكلمات العلمية على وضعها وهي تعد بالالوف وعشرات الالوف ومات الالوف فتغنى العربية بها ويسهل على المتعلمين تناولها او ان يفتشوا عن مرادف لها في العربية ويهملوا ما لا يجدون له مرادفاً وما تتعذر ترجمته . وقد ثبت من بحث الاستاذ ضومط في كتابه الخواطر ان العربية كانت في كل عصورها الماضية قبلما كتب حية نامية . ويظهر بأقل بحث ان هذا النمو استمر الى الآن افيحسن بنا ان نقف الآن في سبيله موجسين شراً اثلاً يدك مقام العربية ؟ لا ياسادني واخواني العربية قائمة بتصاريفها وتراكيبها لا بالاسماء التي تدخلها فقد دخلها الوف من الكلمات السريانية والبرانية والمصرية واليونانية ولم ترددها الاغنى وستدخلها الوف اخرى ولا تزيدها الاغنى ولها اسوة بالفرنسوية والانكليزية والالمانية وكل اللغات المشهورة . والكلمات تتنازع البقاء مثل الاحياء ولا يمكث منها الا ما ينفع الناس فلا نكون عثرة في سبيله .

obeikandi.com

قوة العلم والعلماء

هي القوة التي ميزت الانسان عن الحيوان ورفعت منار المدنية والعمران هي القوة التي عنت لها القوات الطبيعية فلكت الانسان من مقاودها واطلعت على اسرارها وغوامضها فظهر منها ما كان مستوراً ونظم ما كان مبدداً مثوراً هي القوة التي تطل معها الى السموات اللى ونقب بها عن دقائن الارضين السفلى واستعان بها على حل ما اعضل من المشكلات فاهتدى الى معرفة ما كان في عداد المستحيلات وما لو ذكرت بعضه على بعض العامة لرميت بالجنون وتقولوا علي ما كان وما يكون

هي التي ذلت البحار فعلا الانسان متونها بمراكبه وخاض عباها بسفن تجارته ودوارع حربه لا يبالي بها وان قامت مياها لججاً عظاماً وهبت هواها هلاكاً وموتاً زواماً هي القوة التي جعلت الهواء مطية تكاد تكون ذلولاً بعد ما شمع باقعه عن ان يعطي القياد دهرأ طويلاً فعملت البالونات الى حيث قصر السحاب وصولاً

ولا يهولنكم ما ذكرته عن قوة العلم فما ان كان الابسيراً صغيراً وبرقشة على غير العارف يهول بها تهويلاً فللعلم قوة اخرى لا تدرك غايتها عظمة وجلالاً ولا يبلغ الواصفون من وصفها وان اطالوا مقالاً واوسعوا لها في ميادين الطروس مجالاً . قوة ازالته عن العقل من براقع الجهل غشاوة بعد غشاوة وبددت من كتابت الاوهام كتيبة بعد كتيبة . فظهر الحق ودحرت الاباطيل دحوراً

قوة غيرت العقل ومجاري تصوراته تغييراً وقضت ان يكون له من مية الجهل بعثة ونشوراً فبينت له من صواب الرأي وسداده ما اهتدى معه الى سبيل رشاده فنعمت القوة قوة العلم جعلت الانسان سيد المخلوقات الارضية والحاكم يرجع الى احكامه بين البرية

ولكم كان الجهل يشن من غارة شعواء تذهب بالاستضعفة من الناس فريسة للاقوياء ولكم كان يأتي بظلامه عمياء وبلية دهاء وشنيعة شماء تذبج معها الابناء وتضحى لها الامهات والاباء الى ان ذهب العلم بانار الجهل هذه ادراج الرياح ونادى مناديه حي على الفلاح فسدت النظمات والاحكام وعينت وظائف الامراء والحكام ووضعت قواعد الفنون والصناعات ومناهج التجارة والمعاملات . هذا فضلاً عما توصل به اليه من معرفة نواميس الجاذبية العامة ونظمات الافلاك الخاصة . ومعرفة مقادير السيارات وما لها من الابعاد والمدات وما يحدثه بعضها في بعض من الاضطرابات وما هنالك من المبادرات والانقلابات

فكان مما ترتب على قوة هذه المعرفة العلمية ان مات القول بدلالات النجوم الوضعية ومات معها اعتقاد السعد والنحو فيها ونسبة ما كان ينسب اليها مما لا تصح نسبتها بديها ومات ايضاً حوت القمر وتنين الشمس وآلهة الامم الاقدمين كجوبيتر ومارس ونبتون وغيرهم مما ذكر في اساطير الاولين والله در من قال

ابن الرواية بل اين النجوم وما
صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
تخصراً واحاديثاً ملففة
ليست ببدع اذا عدت ولا غرب
عجائباً زعموا الايام مجفلة
عهن في صفر الاصفار او رجب
وخوفوا الناس من دهيا مظلمة
اذا بدا الكوكب الغربي ذو الذهب
وصيروا الابرج العايا مرتبة
ما كان منقلباً او غير منقلب
يقضون بالامر عنها وهي غافلة
ما دار في فلك منها وفي قطب

واما تأثير قوة العلم في معرفة الكهربائية والمغناطيسية وقوانين الالفة الكيماوية وشرائع النور والحرارة واستخدام البخار في الصناعات والتجارة وغيرها من السكك الحديدية والبواخر التجارية والحربية قامر بطول شرحه ويعجزنا وصفه . والحق اذا تأمل متأمل رأى من القوة ما تحار له عقول الخاصة فضلا عن عقول العامة ويكاد يظنهم الكثيرون ضرباً من المحجزات. والمحكي عن كثيرين من امم الهند وغيرهم من القوم الهمج انهم يظنون في الآلات البخارية والكهربائية ارواحاً تدير حركاتها وسكناتها وتفعل تلك الافعال الصادرة عنها ومثل هؤلاء فليس من قوة في الكون تستطيع اقتلاع هذه الاوهام من عقولهم غير قوة العلم فانها القوة التي تفعل ما لا تفعله السكتائب والفيالق وتسطو على مالا تسطو عليه الرماح الخطية والمواضي المشرفية بل ما تستطيعه قوة العلم في استئصال شأفة مثل هذه الاوهام الفاسدة لمّا لا يستطيعه جنود الممالك العظيمة عن آخرها متفرقة كانت او مجتمعة معاً

هذه بنادق الامم الغربية ذات الطلقات المتعددة ومدافعها الضخمة وجنودها المدربة وافرادها الطامعة في المكاسب الحريصة على توفير الارياح جميع هذه لم تستطع ولن تستطيع ان تغير مقال ذرة من عقول امم افريقية والهند وما يدخلها من الاوهام والمعتقدات الفاسدة . وما لم تدخل قوة العلم قهدهم ما عندهم من اسوار الاوهام ومعامل المعتقدات وحصون الجهل والخرافات فلا مطمع بازالتها من عقولهم ونفوسهم ما كرت الايام وتماقبت السنون والاحقاب

ولقد ادرك هذه الحقيقة كثير من اهل الحمية واصحاب الغيرة على ترقية شأن

الانسانية فبعثوا اليهم بطلائع من قوات العلم وفي مأمولهم ان تفعل الاقلام غير ما يفعله الحسام
ولسوف يتحقق لهم صحة ما ارتأوه مع الايام
واما العلماء وهم امراء النوع الانساني وقادته في سبيل الفلاح وهداته في معارج
المدنية والارتقاء فقوتهم اعظم مما يظن واشد في اعتقادي مما تقدرونه لها ايها الكرام فانهم
الضعفاء الاقوياء والسوقة الامراء. هم القوم الذين لا يعقب عليهم معقب الامم ولا يُجرح
آراءهم واقوالهم الا العلماء امثالهم. وهم الذين يرجع الى آرائهم في الحوادث المشكلات ويعتمد
على اقوالهم في الغامضات والمغيبات هم الذين اذا تناقل الناس قول حكمة مثلاً فانما يتناقلونه
عنهم. وهذا شأنهم مذ قام الانسان الى الآن وفي كل طور من اطوار المدنية والعمران
واليك التاريخ فانه شاهد عدل يشهد بما كان وتنطبق شهادته على ما في العيان فما اثار
الامم الغابرة حرباً ولا شنت غارة الا بعد ان اعتمدت مشورة رجال العلم وهم اهل الدين في
تلك الايام والمعقبون على الامراء والاحكام فان شاءوا غضبت الآلهة على البشر وان
شاءوا رضيت

واما فلاسفتهم العظام الذين سارت بهم الامثال كسقراط وافلاطون وارسطو وغيرهم
من كبار العلماء فقوتهم اعظم من ان يقدرها مقدر أو يبالغ فيها مبالغ فانها حمت معاصريهم
ومن جاء بعدهم من اجيالهم ان حسبوهم في مصاف الآلهة واقاموا لهم في هياكلهم من
التماثيل ما كانوا يقيمون مثله لمعبوداتهم وختموا على علومهم من بعدهم فكانت اقوالهم وآراؤهم
هي المتابع فيها والمعول عليها وما زالت كذلك الى الان يتناقلها الناس فيما بينهم فتغير
من افكارهم واقوالهم وبجاري تصوراتهم وهم لا يشعرون وعلى الحقيقة انها كانت بمثابة
حياة تحيا بها عقول العقلاء وقوة يتمد عليها العظماء والامراء ويتفقه بها الاغنياء والفقراء
وما عقب عليهم في مدركاتهم العلمية والادبية فنسخ من بعضها وغير البعض الآخر
الا من جاء بعدهم من جهاذة العلماء واكابر الفلاسفة والحكام. فاذا ما زالت قوة العلماء
هي السائدة على كل القوات والمأخوذ بها بين اهل المراتب والطبقات بل ما زالت اسماؤهم
حية حتى الآن وما زلنا نصف الوزراء والعظماء وجلة الملوك والامراء بنعوت مأخوذة
من تلك الاسماء ولله در من قال

مضى ذكر الملوك بكل عصر وذكر السوقة العلماء باق

فلا تظن يا شيشرون الرومان انك زلت من عالم الوجود فقد اقام لك ابناء جلدتك
من بعد مماتك تماثلاً جعلوه بين تماثيل آلهتهم ودعوك رب البلاغة والخطابة وما دار لسان
احدهم بيلغ عبارة من بعدك الا استمدها منك ولا تكلف متكلف حجة او برهاناً الا

فلا عنك وقد كنت وما زلت امام شيوخهم ومهذب شبانهم
وانت يا كنفوشيوس فيلسوف الصين من عليك نيف والفا سنة في التراب واختلطت
ذرات جسمك مع ذرات تربة الصين فلم تعد تبارز عنها شيئاً ولو نشرت الآن لرأيت انك
ما زلت في عالم الحياة وان قوتك ما زالت تعاضم كما مرت عليك الايام والسنون الى ان
اصبحت ونيف واربعائة مليون من الخلائق يقولون بقولك وياخذون بما وضعته من
آدابك وسنتك ومن فيهم من الامراء والعظماء والقضاة والحكام واكابر الجند واعيان
الامة جميع هؤلاء حتى سلطانهم الاعظم ابن السماء يوقدون الشموع والبخور كل يوم امام
تماثيلك ويتوجهون اليك بتوع من الصلاة والعبادة يسألون آلهتهم ان تقدرهم على فهم
حكمتك والقضاء بموجب سنتك واذا ولد لهم مولود تقربوا به اليك يعلمونه من اعظامك
واجلالك ويلقوناه من مبادئ علمك وحكمتك حتى كأني بالامة الصينية تحيا بك وتنفس
بانفاس آدابك . وانت أيها الفخر الرازي يا ابن خطيب الري لو نشرت من ضربحك
لرأيت كتبك العقلية والنقلية وشروحك التفسيرية تتناقل بين جلة القوم وأفاضلهم . وكذلك
انت يا صاحب الاحياء ما زلت حياً تفعل عظمتك وآراؤك في النفوس والعقول

وانت يا صاحب الكشاف والبيان ما زال بيانك عالياً على كل بيان وما زلت اماماً
للبلغاء في أساس بلاغتك ونايفة فيما اوتيته من سحر بلاغتك ومعجب فصاحتك . وما
قدمت خطيب الرومان وحكيم الصين عليك وعلى من ذكرت من ابناء قومك الفضلاء الا
تقدّمها زماناً ولايين لكم ايضاً أيها السادة ان قوة العلماء هي على ما رأيتم حتى بين قوم
لا كتاب لهم . او بعد هذا ينكر منكر قوة العلم والعلماء ام يتجاسر متجاسر ان يضع لها
حداً او يمثّلها بقوة اخرى غيرها فان منها قوة الجازبية العامة فان هذه تربط عالم الجوامد
المتينة بعضها ببعض وتلك تربط عالم العقول المتصرفة بعالم الجماد وتسعى بها في مراقي
الكمال والعظمة

ومالي وللعصر الخالية والامم الغابرة فانما الاولى بي ان استلفت انظاركم لمحة الى
الحيل الحاضر والى قوة العلم والعلماء فيه فانها أعني قوة العلم قوة تكاد تكون اعظم اثرأ
مما سلفت في جميع القرون المسارة مجتمعة معاً قوة لا تزال تراها تخضع من عالم العناصر
والهيوولى وتغير من مظاهر العمران الخارجي بما يوجب ارتفاع شأنه وعظمة آثاره وراحة
سكانه وكذلك قوة العلماء فانها لاتنك توتر في عقول الناس وآدابهم وافكارهم وتصوراتهم
فترفع أفكارهم عن الخسائس والسفاسف الى ما هو اعلى واسمى وتصوراتهم عن البسائط
الى ما هو اجل وارقي الى تصورات علمها أيها الجلال والعظمة ورواء الكالات الانسانية

واني لموقن أيها السادة انكم لا تشكون في عظمة قوة العلماء ولا في افادة العلم للعمران
البشري عموماً على أي اري ان هذا ليس موقف الاهمية وإنما موقف الاهمية الحقة في
ما هي المعارف التي توجب لصاحبها شيئاً ومكانة في العمران حينما كان من غير تخلف في
أرها اصلاً وهنا استأذنكم في بسط الكلام شيئاً في هذا الشأن فأقول ان من المعارف
ما تعم الحاجة اليها في ذاتها اما لانها وسيلة لتقل القوة العلمية او لمعرفة كيفية استخدامها
والقدر اللازم معها ونوعه واما لتوقف المعاملات بين الافراد عليها . ومنها ما هي خاصة
وليس لنا بها حاجة الآن

أما المعارف العامة الحاجة اليها فاذا ذكر منها ثلاثة انواع وهي اللغة أولاً ومعرفة اخلاق
الناس ومشاربهم ثانياً ومعرفة نظمات المملكة وقوانينها التي تجري بمقتضاها جميع اصناف
المعاملات ثانياً فمن جمع في شخصه هذه المعارف الثلاث فقد حصل من القوة ما يضمن له
بين أقرانه من المسكنة عاليها ومن المرتبة خطيرها وجليها

اما اللغة فلأنها ترجمان الافكار بين المتكلمين والموصول الذي تنتقل عليه القوة الفكرية
الى اذهان السامعين بل هي مرآة المتكلم ترى فيها افكاره واخلاقه وحسن آدابه ومبلغ
تهذيبه . ولا أدل على خطر المرء من لسانه فاذا تكلم انزله السامعون في المعزلة التي يستحقها
فيضعون منه أو يرفعون على حسب ما يسمعون واللغة في ذاتها خلاصة تجور بذي اللبنة
عن هواء . ولحسن البيان موقع في النفوس ما من موقع وراءه ولنفتات البليغ اسحر في
الالباب من نفتات الراقي وألعب بالاعطاف من حيا الساقى وربذي بلاغة يذهل السامعين
عن انفسهم ويشغلهم عن اخذ انفسهم فيتعيبون عن الوجود بما ينفته عليهم من نفتات
بلاغته ويدبر عليهم من مسكر بيانه ورقيق عبارته

ولا اري أولى بحسن البيان وقوة البلاغة من اعيان القوم ونبلاهم واصحاب الوجاهة
وأغنيائهم فانهم لو اضافوا هذه على ما خصهم به المولى لبلغوا مبلغاً لا يناله المتناول ويقصر
عن ادراكه المتناول والمجب من امثالهم أني يملون اللغة ويضربون عن قوة البلاغة وحسن
البيان زينتهم اذا ارادوا تزيئاً وكلمهم اذا ارادوا كمالاً بل هو منشأ تطولهم على الناس وعنوان
فضلهم بين الجلاس ولا غرابة معه اذا غالى الناس في الاعجاب بهم على ما غالى الشاعر
فيمن كان من قبلهم حيث يقول

معسول اطراف الحديث كأنما يسقى المسامع مسكراً او مسكراً

اني لأقسم لو تجسد لفظه أنفت نحور الغانيات الجوهر

وأما معرفة اخلاق الناس ومشاربهم فقوة ما بعدها من قوة فان من عرف اخلاق

شخص ومشاركه فقد ملك قياده واصبح يديره كيف شاء ويحملة على ماشاء فيسره ويسوءه
وينفيه ويفقره ويخدمه ويستخدمه ولا ارى اجهل من رجل يطلب السيادة في قوم وهو
لا يعرف شيئاً من طباعهم ولا من اخلاقهم ومشاربهم ولا اجهل كذلك ممن يتصدى
لحمل الكافة على امر او لتغييرهم عنه وهو لا يعلم ما الذي يدعو الى اقبالهم ولا ما يوجب نفورهم
والامر الاخير هو معرفة النظم والقوانين التي يجرى بمقتضاها التعامل بين افراد
الناس وبين لكل حقوقه وتفرض عليه واجباته ولا يخطر لي هنا ايضاً الا مزيد الاختصار
ولذلك فيكفيني الامناع الى ان هذه النظمات والقوانين انما يصونها الملك والسلطان والامة
اجماعاتاً ولهذا كانت قوتها قوة هؤلاء اجمعين ومن عرفها واتقن علمها فقد جعل على جانبه
قوة المملكة باسرها من علمائها وقضاةها واصحاب الامر والنهي فيها الى سائر من سواهم
من اهل المراتب والطبقات* ومن كان على جانبه مثل هذه القوة فاحر به ان يكون ذا
شان ومكانة بين اقرانه ما بعدها من شان ولا مكانة

ثم إن من جملة النظمات والقوانين ما وضع لخير العموم منظوراً معه الى ترقية شؤونهم
وتحسين احوالهم في الحال والمستقبل معاً ولا يخفى ان هذه النظمات انما وضعت بعد
التحري والنظر وطول الاختبار وتوكل الى من يقيمون بمناصبها فمن البيّن اذن ان اصحاب
هذه المناصب هم ذوو قوة ووجاهة لتوقف النفع العام عليهم على ان قوتهم انما تقوم بمعرفة
تلك المسنونات فاذا جهلوا فلا يفيد وجودهم في مناصبها المخصوصة شيئاً وعندي بل عند
جميعكم ان الذين يطلبون الوجاهة والكرامة بالتصدي لهذه المناصب المهمة فعليهم ان يطلبوا
العلم بالنظمات الموضوعه لها ويتفقهوا في معرفتها والغاية من وضعها واسباب ذلك جميعه
فان لهم بذلك ما يرغبونه ويتنافسون في تحصيله من القوة وتوابعها من الاكرام والتجلة
والا كانوا خشباً مسندة تأنف منهم مرا كزهم وتستغيث تطلب ابعادهم عنها لعدم كفايتهم
بقي علوم اخرى غير هذه على ان تلك العلوم لا تتم الحاجة اليها ولا يترتب نفعها
المادي لاهلها انما نفعها في ترقية شان العالم عموماً وهي متروكة لاربابها من اهل العلم في
كل عصر ممن لاتهمم المناصب والرتب ولا يحفلون بالقوة الظاهرة من الاموال والمقتنيات
يصرفون انظارهم الى موضوع مخصوص ولا يزالون في التنقيب عنه الى ان يبلغوا فيه مبلغ
الطاقة الممكنة لهم في جيلهم وهؤلاء قد يقطن لهم العالم في حياتهم فيوفيهم حقوقهم وقد
لا يقطن لذلك حتى بعد مماتهم فيذكرون حينئذ بما عملوا ويبقى تأثيرهم في الكون واهله
على ممر الايام الى ما شاء الله

[ثم التفت الى الذين اتهموا بدروسهم المدرسية ولخاطبهم قائلاً] اتقدم اليكم الاتحافوا

أن يحبط سعيكم في طلب العلم ولا يداخلكم شك في انكم ستكونون في مقدمة رجال
العمران حينما كنتم وذلك اذا اعتمدتم على قوة العلم والمعرفة ولا سيما فيما تعم اليه الحاجة
بين ابناء جلدتكم فوجهوا انتباهكم لتحصلوا على كل ما يمكنكم تحصيله من حسن البيان
والبلاغة فان ذلك وسيلة للتفاهم وواسطة لنقل قوة العلم التي فيكم الى من يجاوركم والا
ذهبت ضياعاً لان القوة اذا لم يكن لها من موصل ينقلها لم يكن لها من اثر محسوس كما
لا ينحفي على عالمكم

وكذلك عليكم بمعرفة اخلاق الناس وطباعهم ومشاربهم ودرجات عقولهم وامياهم
الادبية فانكم بذلك تعرفون نوع القوة التي ينبغي ان تستخدموها في سبيل منفعتهم وترقية
شؤونهم وتحملونهم على اعتباركم والاتصاح بنصائحكم
واعلم من هذه جميعها ان تفقهوا ولا سيما غير الاطباء منكم بدرس نظمات دولتنا
العلية ومسئولياتها المبنية على الحكمة والعدالة والمقصود منها صلاح حال الجمهور وفلاح
احوالهم فاذا فعلم ذلك لم يجسر متجاسر ان يفتات عليكم في حقوقكم ولا ان يلبس عليكم
في واجباتكم فترتمون آمنين مطمئنين في ظل سلطاننا الاعظم



ترتيب الفعل ومتعلقاته

لا بد في الجملة الفعلية من ذكر الفعل قبل الفاعل مطلقاً وأما ما سواه من بقية المتعلقات فالاصل فيها ان تتأخر عن الفعل الا أنها بحسب الصناعة اللفظية لا يتعين بينها وبين الفعل ترتيب مخصوص فلك ان تقدم ما شئت منها على الفعل او تؤخره على ما تراه مناسباً بشرط ان تحافظ على منع الالتباس وتجنب التعقيد . اما الالتباس فلا يسوغ بوجه من الوجوه لخافته الغاية من وضع اللغة واما التعقيد والمراد به كل ما اوجب توقفاً في فهم المعنى المراد او اوجب للذهن تمباً يمكن تجنبه قل او كثر فلا تؤذن به البلاغة والطبع ايضاً يقضي بتجنبه ما امكن

وهذان الشرطان اعني منع الالتباس وتجنب التعقيد (او توخي سهولة الفهم) لا يمكن حصرهما في ضوابط معينة أما يرجع في ذلك الى مقامات الكلام والى نظر الكاتب وخصوصية في فطرته من جهة والى معرفة القواعد والتراكيب النحوية المتعارفة والمنفق عليها من جهة اخرى . وارى ان الاطالة في ما يوجبها او ينفىها ضرب من التكلف لا حاجة بنا اليه وخير من ذلك ان نذكر بعض الملاحظات في شأن ترتيب الفعل ومتعلقاته وهي لا تخلو من فائدة

(١) قدم الزمان وما يتعلق به على الفعل في كل جملة يبادر فيها الذهن لداع من الدواعي الى تعيين الزمان كقولك مثلاً « يوم الاربعاء الواقع في ١٠ تموز الساعة ٨ ب.ظ تحفل المدرسة الكلية السورية الانجيلية احتفالها السنوي الخ » وسببه انه مع ذكر الفعل الذي يدعو مقتضى الحال الى تعيين زمانه كثيراً ما يبادر الذهن الى تعيين ذلك الزمان فان اصاب في التعيين وهو القليل التادر اقتضى ذلك احضار الزمان في الذهن مرتين مرة قبل ذكر الزمان في الجملة ومرة بعده وهذا اسراف . وان اخطأ كان في ذلك مشقة على العقل في اصلاح خطأه والرجوع الى الصواب وهو من الاسراف ايضاً بخلاف ما اذا ذكر الزمان اولاً فانه لا يكون من العقل على الغالب الا انه يتبياً لا تظار الفعل حتى اذا ذكر ادركه من غير تكلف لاحضاره اكثر من مرة او لاصلاح ما اورثه التسرع

(٢) قدم المستقيم عنه مطلقاً كقولك « ماذا فعلت » و « متى اتيت » وهو معلوم

(٣) قدم ما اردت تعيينه او قصره او تخصيصه اذا كان مقتضى الحال يدعو الى

الاختصار او يؤذن به فان مجرد التقديم دليل على ما اردت عند البلغاء من غير استئانة

بلفظ موضوع له (كلفظة لا غير او العطف بلا الخ) مثال ذلك قولك « ماء شربت »
تعني « شربت ماء لا خمرأ » وقول القائل

بكم فريش كفيينا كل معضلة وأم نهج الهدى من كان ضليلاً
اي بكم لا بغيركم او دون من سواكم كما لا يخفى . حكي ان بعضهم شتم صاحبه شتما قبيحاً
فاعرض المشتوم عن جوابه فقال الشاتم اياك اعني فاجاب المشتوم وعنتك اعرض . وكل
ذلك مما تقضي به بديهية الطبع فضلاً عن حسن الذوق

(٤) اختر ذكر العلة او سبب الفعل عن الفعل لان العقل لا يسأل عن سبب الفعل
الا بعد وقوعه ولذلك كان ذكر سبب الفعل قبله مما يتأذى منه العقل لما فيه من المخالفة
لمقتضى الترتيب الطبيعي الا لغرض كإرادة القصر او التعيين على ما مر وكان يكون السبب
واقعاً معلوماً من قبل والفعل (او مناه) المسبب عنه اشبه بالنتيجة له فيتقدم حينئذ ذكر
السبب وعليه ورد في سفر التكوين « لانك سمعت لقول امرأتك واكلت من الشجرة
التي اوصيتك قائلاً لا تأكل منها ملعونة الارض بسببك بالتمب تاكل منها كل ايام حياتك »
وكقول رئيس المحكمة مثلاً « بناء على ثبوت الدعوى المقدمة من فلان على فلان بشهادة
الشهود العدول نحكم على فلان بكذا الخ »

ومما يقرب من هذا قول بعضهم

لما رأيت موارداً للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها تسعى الاصغر والاكابر
لا يرجع الماضي الي ولا من الباقيين غير
ايقنت اني لا محالة حيث صار القوم صائر

فانه قدم على الفعل (ايقت) ما اوجبه من الاسباب الواقعة المعلومة لترتب اليقين عليها
بما يشبه ترتيب النتيجة على المقدمات

وقريب من هذا الباب ما اذا كان الفعل واقعاً معلوماً عند المخاطب والعقل متوجهاً
للسؤال عن سبب الفعل فانه في مثل هذه الحالة تقتضي البلاغة ذكر السبب اولاً لاسيما اذا
كان للفعل حجب تبعه التنصل منها . حكي عن بروتس احد عظماء الرومان وصديق قيصر
الكبير انه بعد ان قتل قيصر قام فيهم خطيباً واليك مفاد بعض ما قاله ولا فرق هنا بالنسبة
الى غرضنا بين ان تكون نسبة هذه العبارات اليه حقاً او ادعاء قال « لان قيصر كان صديقي
فانا ابكي عليه واندبه ولانه كان ذا حظوة موقفاً فانا اهش لهذا واستعذبه ولانه كان بطلاً
شجاعاً فانا اجله واحترمه لكن لانه كان يتشوف الى الملك واذلال الرومانيين قت عليه وقتلته »

فانظر كيف قدم ذكر السبب في هذه الجمل الاربع اما في الثلاث الأول فلان السبب واقع معلوم من قبل واما في الرابعة فلان الفعل واقع معلوم دون السبب مع انصراف الحواطر الى معرفته وتوجه غاية المتكلم الى ان يتصل من تبعه الفعل بذكر السبب الذي يقوم به عذره لدى السامعين

(٥) قدم ما اردت على الفعل محافظة على الفاصلة في الكلام المنسجوع ومحافظة على الوزن او القافية في الكلام المنظوم (على شرط عدم الالتباس وعدم التعقيد) كالأية « خذوه فقلوه ثم الجحيم صلوه ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه » وكقوله

وما كل بمعدور يبخل ولا كل على بخل يلام
وكقوله ايضاً وجدتموهم نياماً في دماثكم
كان قتلاكم اياهم فجمعوا
وكقول الآخر عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه
فكل قرين بالمقارن يقتدي
وهذا كثير شائع

(٦) توخَّ المطابقة بين الجمل المتعاطفة فقدم في المعطوف ما هو مقدم في المعطوف عليه وأخر هنا ما هو مؤخر هناك كقولك : انه كان لا يؤمن بيوم الحشر العظيم ولا يحض على طعام البائس المسكين . فاذا قلت مثلاً انه كان يوم الحشر العظيم لا يؤمن فقل وعلى طعام البائس المسكين لا يحض . وقد تكون المطابقة بين طرفي كلام واحد كقول الخوارزمي « ولكن الكبير من الكبير يصغر كما ان الصغير من الصغير يكبر » فاذا قلت ولكن الكبير يصغر من الكبير فقل كما ان الصغير يكبر من الصغير

واعلم ان متعلقات معنى الفعل كالصفة والمصدر يجري عليها مع الصفة والمصدر ما يجري على متعلقات الفعل معه مما مر بك واللييب اذا احسن اعتباره في ما ذكرناه كفاء ذلك عن مزيد التطويل وكثرة الامثلة



الى ماذا نحن صائرون وكيف نتلافى امرنا (١)

ايها السادة والسيدات

علم الله اني استعفيت من المقام في هذا الموقف امامكم فلم أعف . وحاولت جهدي في ان اتخلى عنه لغيري ممن يتشوف البادي والحاضر للاصغاء اليه فلم ائل بغيرتي . حاولت ان اتخلى لرب الخطابة والمقدم فيها العلامة الدكتور وايم فانديك ويا حبذا لو تم ما حاولته فانه لو قام بمقامي هذا الفاضل على ما اشتبهت وسعيت لكانتم تسمعون منه الآن غير ما تسمعون وتمر بكم الساعات لا الدقائق وانتم صاغون ومعجبون بل كنتم تودون لو بعد الليل بساعات من النهار وانتم باسبون ومبتهجون لكن صدق شاعرنا المشهور حيث يقول

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

فقد جرت الرياح بسفينة هذا الواقف ا.ا.م وهو مبلبل البال مضطرب الخواطر يخشى ان لا يحسن ادارة دقتها فلا تصل به الى حيث يريد وان هو احسن القصد وافرغ في سبيل ذلك غاية المستطاع ومنتهى الجهد . على اني اخلصت النصح في ان يكون غيري الخطيب ممن رضونه ثم لما لم يسمع نصحي ولا سوعدت على اخلاصي بذلت غاية جهدي في ان آتي بأحسن ما يؤتى به من مثلي فان جاء في ما سأقول شيء يشفع بي عندهم فذلك لفضل فيكم وجزاء لي على اخلاصي والا فاللوم على من اوقفوني هذا الموقف لا على لاني نصحت اولاً واجتهدت ثانياً وبذلت في هذا وذاك غاية ما في وسعي ولا تكلف نفس فوق ما في وسعي

موضوعي ايها السادة والسيدات « الى ماذا نحن صائرون » وهو موضوع بعيد المسافات متوعر المسالك فان انا اخذت في جميع طرقه واطفت به من جميع جهاته اعوزني الوقت وحملاكم من المشقات ما لا تطيقون وهب ان فسح لي في الوقت فمن اين لكم الصبر اذا ساكت بكم في جميع منرجاته وطفت معكم في جميع معالنه ومشاهده بل أرى الوقت لا يؤذن لي بالمقدمات التي تقدم عادة بين يدي الموضوع ولا بالتمهيدات التي يمهّد قبل ان تقف مسائله ويخاض في مخاوضه فاعذروني اذن في اقتضاب الكلام اقتضاباً وابتداء الغرض منه ابتداءً فاقول . انظروا الى جبالنا تعلموا الى اين نحن

صائرون . هذه جبال لبنان من اولها شمالا الى آخرها جنوباً جميع اعاليها جرداء قرعاء يسلك فيها السالك ساعات لا يرى شجرة ترمي ظلا او تمسك تربة فاذا وقعت عليها العين من بعيد لا تستقر على ما كان ينبغي ان تستقر عليه من انيق خضرة تسر العيون بجمالها او غابات ادواح رائحة تنبع الصدور لاتساعها وتستشعر القلوب والنفوس اعظاما اعظمتها وهيبة واجلالا لهيبتها وجلالها . نعم لو كانت كما ينبغي ان تكون لا على ما هي عليه الآن لكانت احسن بفاع الله ماء وهواء وجمالا وجلالا ولكانت بلاد سويسرا على شهرتها ليست الا وصيفة من وصائفها او امة من امانها . بل لو كانت كما ينبغي ان تكون لا اعتدلت فوق اعتدالها فصولنا فكان صيفنا اعل هواء والطق حرا وأقل جفافا واطرد شتاؤنا فكان اكثر مطرا وجاء الباكر منه والمتاخر في اوانهما معتدلا لا طوفانا يجرف التربة جرفا ويخرب السواحل تخريبا ولا رذاذا غمما لا يتقع صدى ولا يروي لأرض غليلا . وليس الحال في بقية جبال سورية وتلاها الا على ما وصفنا به جبال لبنان فان اكثرها جرداء قاحلة بعد ان كانت غابا واحداً من ادواح الأشجار على اختلاف اجناسها وأنواعها والمترتب على هذا فضلا عما ذكرنا من اختلال فصولنا وقلة امطارنا وعدم اضطرادها شتاء وريعا ان قيمت اخشاب البناء وقل الإقود في البلاد واعوز وجدانه في المدن والقرى الكبيرة وارتفعت اسعار الفحم فيها

من اين ما نراه من مستودعات الحطب في جوار ميناء الحسن امن غابات لبنان هوام من حراج صنين والشعراء ؟ ولا يبعد بمد قليل ان ترى مثل هذه المستودعات او ما هو من بابها في دمشق وغيرها من مدن الداخلية كما نراها اليوم في اكثر مدن السواحل لو لم يكن الا هذه المستودعات لكان الامر لان ما فيها يردنا من بلاد عثمانية وفي سفن على الغالب عثمانية ولكن انظروا الى طرق لبنان المزدهمة بدواب النقل واخبروني ماذا تحمل هذه ؟ انها تحمل احجاراً سوداً مربعة الشكل يقال لها فحم حجري يردنا من إنجلترا او فرنسا او بلجكا وهي بلاد اجنية وفي بواخر اجنية ايضاً ليوقد في معامل بيروت ولبنان او ليوقد في مواقد حديدية اجنية لدفء شتاء في كثير من بيوت بيروت وكثير من بيوت لبنان الكبيرة . بل هنالك اكثر مما ذكرنا . ادخلوا البيوت في بيروت وفي كثير غيرها من المدن والقرى الكبيرة وفتشوا في مطابخها واخبرونا ما هو نوع وقود هذه المطابخ انكم قلما تدخلون بيتاً الا وترون وقوده البترول من باطوم او الولايات المتحدة . فلماذا استبدتم يا اصحاب البيوت مواقد مطابخكم بطباخات البترول ؟ اليس لان جبال لبنان وسورية اصبحت قرعاء جرداء فاعوزنا الحطب والفحم

واضطربنا اضطراراً الى الطبخ والغسل على البترول . هذه نظرة نظرناها الى جيانا
فقولوا لي بعدها يا من ترون معي ما ارى « الى ماذا نحن صائرون؟ » وأسفاه وأسفاه
انا صائرون الى الخراب والافلاس غداً او بعد غد

دعونا من هذه النظرة اليها السادة وانظروا نظرة اخرى الى حالة زراعتنا . سهولنا
ومزارعنا اكثرها بور والمزروع منها وهو ما قارب المدن والضياح لا يكاد يبلغ ربع
الارضين . واما ما بعد فتروك للشوك والحسك . ويا ليت ان في البلاد ماشية من الغنم
والبقر وسائمة الحيل تتكاثر وتنمو على هذه الارض المتروكة بوراً فكنا اذن نستوفي شيئاً
من خصبها الطيبي بصورة الماشية ولكن الحال ليست كذلك فان اغنامنا قليلة جداً وكذلك
بقية الماشية حتى تضطر اغاب مدتنا وضياعنا الكبيرة ان تجاب اللحوم من خارج سورية
وقد بلغ ثمن افة اللحم في مدينتنا بيروت في غضون هذه السنة نحواً من خمسة عشر غرشاً
او يزيد وهو ثمن لو بلغته افة اللحم في لندن او باريس في غمرة الشتاء لضج اهلها من
مجاوزته المعتاد

انظروا الى انهارنا واعظمها العاصي شمالاً والاردن جنوباً والليطاني ما بينهما فهذه
الانهر الكثيرة المياه السريعة الجرى متروكة همللاً لا تسقي ارضاً ولا تدير آلات الا
بعض مطاحن لطحن القمح . ولو ان هذه الانهر ينفع بمياهها على ما ينبغي لكانت
البلاد على بعض ضفافها تفوق بلاد النيل خصباً وكثرة حاصلات ولكانت كما يقال
تفيض ذهباً وفضة . واقدم نقل عن استاذنا الدكتور جورج بوست انه قال اعطوني نهر
العاصي وواديه عن جانبه والاردن وواديه وانا املا لكم سورية طعاماً وكسوة فلا
يجوع رجل ولا يعرى ولد

ايها السادة سهولنا واسعة ومزارعنا خصيبة ومياهنا في بعض الجهات كثيرة ولكن
اين غلاتنا؟ اين الحبوب التي كان ينبغي ان تكون مركومة امثال التلال في مزارعنا
وقرانا وتصدر في سفننا من ثغورنا الى مدن اوربا وبنادرها . ام اين اقطاننا التي تملأ
بيوت زارعها وتفيض فتملاً المستودعات الكبيرة والمخازن الواسعة في مدتنا فتصدرها
مجارنا وترد علينا اثمانها ذهباً وهاجاً

واأسفاه ليس شيء من ذلك اما القطن فاطن الشبان ومن هم في اول سن الكهولة
من زراعنا لا يعرفونه الا محشواً في فراش احدهم او لحافه اما كيف يزرع ويجنى ويحجج
ويغزل ثم يحاك خاماً كان يضرب المثل بمتاته فذلك مما يسمعونه عن آبائهم او تقلا عن
المتقدمين سنأ فيما بينهم

واما الحبوب فيسوءني ان اتول على مسع منكم ان كثيراً من مخازن الخنطة في مدينة تاملان منها لكن من غير سهول حصص وحماء والشام وهوران ولو ان الخنطة والدقيق بردان الينا من ايطاليا فقط لهان الامر لان ايطاليا بلاد عثمانية وقبحها يستهلك في ثغر عثماني واكن سلوا العارفين فيخبروكم ان تجار الدقيق قد يستوردونه من روسيا وفرنسا بل من اميركا وانكثرتا ويجدون له مشتريين في بيروت وغيرها من المدن البحرية. وان لساني لتلعم في فمي حزناً واسفاً اذا ذكرت لكم ما اراه وترونه انتم كل يوم من مركبات تحمل الحيز الى كثير من البيوت من افران تجلب دقيقها من فرنسا او روسيا واحياناً من ايطاليا وفي كل يوم يزيد عدد الموزع عليهم من هذه الافران عن سابقه

دعونا الان نلقت نظرنا عن حالتنا الزراعية الى حالتنا الصناعية . وبكل اسف اتقول انها اشبه بحالتنا الزراعية ان لم اقل اسوأ منها عاقبة واسرع بنا الى الخراب والافلاس مصيراً . ادخلوا الى بيوتنا في المدن والضياح وانظروا ماذا ترون ؟ ترون اثاثنا وادوات طعامنا وشرابنا وانواع زيتنا اغلبها ان لم اقل كلها هي من المصنوعات الاجنبية ويا لاسف حتى الزيوت والمكبوسات من البصل والخيار واشياء ذلك ولا اتقول المشروبات ترد الينا في قناني من البلاد الاجنبية ونفاخر بها لانها من صنع بلاد اجنبية . استوقفوا رجالنا وشباننا برهة وانظروا في ملابسهم من اسفل القدم الى قمة الرأس فانكم ترون الاحذية من صناعة اجنبية والطرايدش كذلك وما بينهما من القميص الذي يياشر الجلد الى المنديل في الحيب كل ذلك من بلاد اجنبية وصناعة اجنبية . ويا للعجب ان القمصان وربط الرقاب يستخف بها اذا كانت مصنوعة بايدي صناعنا وبقاخرها مجرد انها مصنوعة في لندن او باريس واعجب من ذلك وانه لعجب يستوجب البكاء ان بعضاً من شبانتنا يباهون في انهم يخيطون ائوابهم في باريس او في لندن يرسلون اقدارهم الى الخاططة هناك فتأتيهم الاثواب طرداً في البوستة او مع احد الركاب لا يشعرون بسوء عاقبة ما يفعلون ولا يقطنون لفضيحة ما به يباهون

امور تضحك الجهال منها ويبيكي من عواقبها الحكيم

استوقفوا المكاري استوقفوا الفلاح استوقفوا الفاعل من الفعلة الاعتياديين وانظروا ماذا قد يلبس كل واحد من هؤلاء لا ترونه يلبس العباة ولا الخمام البدي ولا الدعيما التي يحوكها صناع بلادنا وكان يلبسها من قبل اعما ترونه يلبس الصاكو المصنوعة في المانيا والدعيما المنسوجة على ائوال منسستر والجد المديوغ في مداين فرنسا واميركا ياشبان بلادنا ويا رجالها لماذا لا تلبس الانسجة التي حاكها صناعنا في بلادنا على

انوال دمشق وبيروت وحمص وحماء والزوق يا سيدات بلادنا لماذا لا تلبسن الحرائر المنسوجة على هذه الانوال وتباهين - كما تباهي الغريات - في منسوجات نسجتها صناعنا وخطتها الحاطة من ينسنا - واي لا اخاطب الغنيات اللواتي يملكن هن او ازواجهن الالوف من الخنيمات فهؤلاء مستثنيات في كل بلاد فضلا عن انهن يعددن على الاصابع وانما اخاطب من سواهن من الجمهور الاعظم

ايها السادة والسيدات اني لاستحي من نفسي واستر عيني خجلا اذا ذكرت لكم ان رئيس مدرستنا هذه واعضاء عمدتها رأوا سوء الحالة التي ذكرتها لكم وحببوا الينا غير مرة ان نلبس ملابس بلادنا ومنسوجات بلادنا ليقندي بنا تلامذتنا في ذلك فيخفف عن عائق آباءهم كثير من النفقات التي حنت ظهورهم فاعرضنا عن نصحتهم وأدرنا اليهم ظهورنا

دعونا بعد ننظر من موقف آخر يطل على حالتنا الادبية من جهة الاقتصاد في النفقات فلعل هنالك ما يختلف في المغزى عما رأيناه. هؤلاء شباننا يسرحون ويمرحون فانظروا اليهم عن آخرهم انظروا الى ابناء المدارس والمتاجر والصناعات المختلفة وقولوا لي ماذا ترون. انهم على اختلافهم في درجات الغنى وعلى اختلاف في المهنة التي يمهنونها والمدرسة التي يتعلمون بها وعلى اختلافهم ايضا في الازواق والمواهب العقلية والادبية يكادون يتفوقون في المباهاة بالانفاق على غير طائل ويتنافسون في الاسراف والتبذير - الا من عصمهم الله وقليل ما هم يركبون العربات لا لأنهم لا يستطيعون المشي ولا لان في ركوبها زيادة في المسرة ويركبون الدراجات لا لانهم يريدون المحافظة على الوقت والاسراع في قطع المسافات الطويلة لياشتمروا اشغالهم في اوقاتها باكرأ بل يركبون هذه او تلك لان في ركوبها مظهراً من مظاهر الاسراف وايماء الى ما يذهبون اليه باطناً ويبدو في عرض احاديثهم ظاهراً من انهم لا يحفلون بانال ولا يقدرونه بقدر كأن الرجولية والأسفاه تتطلب الاسراف او الحكمة تأمر بتبذير المال. اسأل المستخدمين من هؤلاء الشبان ماذا ابقيتم في جيوبكم من رواتبكم الشهرية او السنوية رأس مال لكم في المستقبل يجيبوك انهم لم يبقوا شيئاً بل كثيرون منهم ابقوا عليهم ديناً يماطلون به او يتدافعه عنهم آباؤهم. اسأل ابناء المدارس فيما انفقت النفقات الكثيرة التي يئن آباؤكم من ثقلها واتم تاكولون وتشربون من المدرسة وتنامون فيها فيسكتون او يتمنون ويعتذرون بما لا يحصل له دعوا الشبان جانباً وانظروا الى البيوت الى الآباء والامهات واسألوا هؤلاء ماذا انفقوا في سنتهم الماضية ام اين حسابات تلك السنة؟ ما اظن احداً من المسأولين يقدم

لك حساباً واكثرهم يتعلمون بقولهم وما فائدة مسك الحسابات ايقول ذلك من النفقات ام يزيد في الدخل؟ وكأني ببعض السائلين يتعلمون من هذا السؤال وينظرون ذات اليمين وذات الشمال وبعضهم ينظرون بطرف خفي الى زوجته وكلنا نعلم معنى هذه النظرة. وغاية ما نجد هنا ان الدخل والخرج متساويان ان لم يكن الثاني يزيد على الاول. فاذا سألت اولئك الذين تساوت نفقاتهم ودخلهم ماذا تؤملون في المستقبل قالوا لك الله كريم غداً يكبر اولادنا فينفقون علينا بدلاً مما انفقنا عليهم في تعليمهم وتهديتهم. واما اولئك الذين تزيد نفقاتهم على دخلهم فلا نعلم ايضاً جواباً نعتذر به عنهم. ايها السادة كآني اسمع احدكم يقول مالك ولنا نحن الذين قيل فيهم بعمق جيبك تا كل خبزك فانه يكفي امثالنا ان يزجوا العيش تزجية وحسبهم ان يتساوى دخلهم ونفقاتهم فاسأل اصحاب الاملاك الواسمة والمقتنيات الكثيرة ودعنا نحن وشأتنا. صدقت ايها القائل اقله بحسب الظاهر فانسألكم يا اصحاب الاملاك والمقارنات الذين بيننا والغائبين عنا. ماذا وفرتم من دخلكم في السنة الماضية؟ وبأسف اجيب بلسان اغلب هؤلاء ان نفقاتهم تستغرق دخلهم بل كثيرون منهم تبقى عليهم بقية دين من سنة الى اخرى فلا تلبث هذه البقايا ان تتكاثر سنة بعد سنة وهم لا يشعرون وكثيرون منهم لا ينتبهون من غفائهم الا وقد اطاف بهم الافلاس واصبحوا في خطر من ان يفقدوا املاكهم ووجاهتهم معاً

وايس التجار بيننا خيراً بكثير ممن ذكرنا من الاغنياء من اصحاب الاملاك. هؤلاء الذين ينظر اليهم من بين جميع الطبقات ويتوقع منهم ان يحافظوا على رؤوس الاموال ويزيدوها من سنة الى اخرى ليدروا بها البلاد ويزيدوا من مرافقها ومنافعها العامة — هؤلاء اذا فتشتم عن احوالهم ترون أنهم يكادون يماثلون بقية الطبقات في تعريض رؤوس الاموال التي يتوقف عليها نجاح البلاد للخسارة والضياع. فان كثيرين من تجارنا ومن هم بمثابةهم ممن جمعوا شيئاً من رأس مال قد استغوتهم البورصة فالتقموها فضلات ما جمعوا فاطبقت عليها اشدقها وتركتمهم صفر الايدي يعضون اصابعهم ندماً وحسرة

قولوا لي ماذا اصاب بيروت في هذه السنين الاخيرة؟ اما نقص رأس مالها نقصاً فاحشاً ضعيف اركان الامنية التجارية واوقف حركة الاعمال والتاجر. لو شئت لظلمت اعدد حتى الصباح مظاهر واحوالاً لا تخفى على عاقل وكلها تشير الى سوء مصيرنا وتسرعنا افراداً واجمالات البلاد والعباد الى شفا الافلاس والحراب. وقد بدأت الحال تتكشف عما ذكرنا فابن الاطباء والصيدالة واصحاب الشهادات العلمية الذين يخرجون من مدارسنا سنوياً؟ ابن الصناع الاكفاء؟ ابن الفعلة الاقوياء؟ ابن اهل الفلاحة والزراعة

من يستغلون الاراضي ويقومون على استثمار خيراتها ؟ اين جميع هؤلاء ؟ وماذا اصاب اكثرهم ؟ انهم يهاجرون افواجاً افواجاً لم يتوقف تيار مهاجرتهم منذ اكثر من خمس وعشرين سنة الى الآن حتى بلغ فلهم اطراف المعمور وما اظن يقل عددهؤلاء المهاجرين عن الاربعمئة الف نسمة ولا يزال الكثير ممن لم يهاجر يتشوف الى المهاجرة ويجعلها نصب عينيه

تأملوا ايها السادة واحكموا لانفسكم . بلاد واسعة من اخصب بلاد الله في المعمور ومن احسنها هواء وانقاها سماء وماء لا يزيد اهلها على المليونين ومع ذلك فقد هاجرها نحو من خمس سكانها وفي هؤلاء المهاجرين كثيرون من اطباؤها وصيادلتها وكتبتها ومعلميها وصناعها من اقوام بنية واحدم قلباً وخاطراً . فلماذا هذه المهاجرة وما هو سببها ؟ انه ليس لذلك من سبب الا قلة رأس المال في البلاد عموماً وعوز اولئك الذين هاجروا خصوصاً . نعم ان لو كان بين يدي الافراد او في البلاد رأس مال ما هجرها الطيب والصيدلي ولا الكاتب ولا المعلم . ومثل ذلك يقال في الصانع والعامل والفلاح والزارع ومن سواهم من اهل الحرف المختلفة . وما معنى الافلاس الا ذهب رأس المال

كيف تدارك امرنا ونبليغ امانينا

متى ايها السادة تصبح اعالي لبنان غابات ادواح وتلال سوريا وهضابها كروماً ناضرة وحدائق غناء يانعة ؟ متى تصبح سهولنا الواسعة ملائمة قطعاناً ومزارعنا الحصية تفيض حنطة وخيراً ؟ متى تستخدم مياه انهارنا الكبيرة في ري ما على ضفافها الحصية من التربة فتصبح أقطاقتنا تكفي حاجاتنا ونصدر منها الى البلاد الاجنبية جانباً كبيراً ايضاً ؟ بل متى يعمل لنا صناعتنا وندفع اليهم اجور العمل لا الى غيرهم فيبقى مالنا في بلادنا لا يتسرب منها الى البلاد الاخرى اجرة لصناعها ويبقى صناعتنا فارغى الايدي وعالة على البلاد لا يجدون عملاً بمملونه . متى ترى كل ذلك ؟ لا بد ان يمر علينا زمن طويل قبل ان نتحقق لنا هذه الاماني . على انما لا نتحقق الا اذا أخذنا بالاسباب المقتضية لها . وهذا ما همنا السؤال عنه أعني كيف تدارك امرنا بحيث نبلغ امانينا من جهة وندفع من جهة أخرى عن انفسنا وعن بلادنا شر ما نحن صائرون اليه من الافلاس والحراب

يقول البعض اعقدوا الشركات لجمع الاموال وانفاقها في غرس الغابات والكروم وفي تكثير الزرع والضرع واستخدام مياه الأنهار في الري والصناعة . ونعم القول والرأي هذا . ولكن اين الاموال لذلك والبلاد في حالة الافلاس ؟ من منا في صندوقه مال مذخور

يستغني عنه زماناً طويلاً ليودع في صناديق هذه الشركات؟ اجيبوني ايها المعلمون اجيبوني ايها الشبان المستخدمون. اجيبوني يا ارباب البيوت واصحاب الحرف والصناعات المختلفة. بل ما لنا ولهؤلاء اجيبوني ان استطعتم يا ارباب الاملاك الواسعة والعقارات الكثيرة وافتحوا صناديقكم لئرى ما فيها من الذهب الوهاج . بالمزيد الاسف انها فارغة ليس فيها دينار واحد يستغني عنه مدة . مالنا ولهؤلاء ايضاً . هلموا بنا الى التجار والصارف نستقيث بهم . يا تجارنا الكرام وصيارفنا الاغنياء افتحوا صناديقكم الحديدية لئرى ما فيها من الاموال الاحتياطية . هل من احد منكم حاضر هنا يسمع كلامي ؟ اني اشك بذلك . لكن هب ان كان منكم احد الآن او كان غيره ممن هو عارف بحقيقة الحال فماذا يجيب ؟ ان البورصة ابتاعت من هذه الصناديق في السنين الاخيرة من مدينة بيروت فقط ما يزيد في الراجح على الخمسة الف جنيه كان يمكن ان تستودع اساساً لمثل هذا المشروع وتزاد في المستقبل شيئاً فشيئاً فلم يبق الا ما يكاد يكفي لحركة تجارتنا الاعتيادية البطيئة

يقول قائل اذن فلنستدن الاموال من الخارج . من صيارفة اوربا وبيوت المال فيها . واأسفاه ان هذا ما يحاوله هؤلاء وهذا ما يسمون اليه جهدهم . وان تم لا سمح الله اصبحنا غرباء في البلاد واصبحت السهول والحيايل لهؤلاء دوننا وخير لنا ان تبقى البلاد قرعاء جرداء وعلى شر مما هي عليه وهي لنا من ان تصير الى ما نحلم به وهي لاوائك الاقوام . وكفى عبرة بما وقع لغيرنا وببعض ما وقع لنا

قالت الضفدع قولاً فسرتة الحكماء

في فمي ماء وهل ينطق من في فيه ماء

ايها السادة اني سمعت ما اكاد اظنه حليماً لا حقيقة وهو ان بعض اغنيائنا في مصر والشام قد عقدوا شركة مائة رأس مالها منهم وفي نيتهم ان يستخدموا هذا المال في احياء الموات من الارضين وفي زراعة القطن واستثماره على الاخص فان كان ما سمعته صحيحاً — حقيق الله الخبر — ففيه ما يحبي لنا شيئاً من الامل وتوقع معه حسن العاقبة في المستقبل ومع انا على يقين ان الله اذا اراد امراً هياً له اسبابه فليس من الرأي ان نترسل الى ما لم يتحقق بعد من الاماني ونترك ما في مكننتنا لنحاذه من الوسائل والاسباب التي تقضي بها علينا الحكمة والرأي مما يكون ردياً لهذه الشركة ودعامة لها تدعما في حينها . يقول آخرون هذبوا فتياننا وفتياتنا فان على تهذيبهم مدار النجاح والفلاح وفيه اساس لحسن الحال والمال في العاجل وضمانه يتلافى بها ما يهددنا من الافلاس في المستقبل . ونعم هذا القول قولاً ما اشوقه في الظاهر وارواه واسده قبل التحقيق وامضاه وكان علي

من حيث أي معلم ان اختم على صحته من غير تردد فيه او اهمل به على رؤوس الملا من غير
تجريح له . ولكن ان كان القصد بالتهذيب مجرد التعليم علي ماجرينا عليه الى الآن
فما اكثر الافوال الشائقة لكن على غير جدوى واروى الآراء المموهة لكن من غير
محصل ولا فائدة ! هذه مدارسنا قد ملأت المدن والقرى ومنذ ثلاثين سنة الى الآن
وعدها يتزايد وعدد الطالبين والطالبات يتكاثر فاذا نفع البلاد تعدد المدارس او ماذا
اجدى عليها تكاثر عدد الطلبة ؟ ان عندنا الآن من المدارس الكلية والعالية ما لو نسبناه
الى عدد الانفس لاربي على ما عند الانكليز او الفرنسيين . ومع ذلك فالبلاد اليوم
اقرب الى الافلاس مما كانت منذ عشرين او ثلاثين سنة وستكون بعد عشر سنين اقل رأس
مال مما هي عليه الآن ان لم تتدارك امرنا . قولوا لي ماذا نفع البلاد كثرة التلامذة وما
هي الزيادة التي زادوها الي رأس مالها ؟ بل كيف ينفعون البلاد وهم يهاجرونها الواحد
بمد الآخر وقد بلغ فلأهم اطراف المعمور من شمال اميركا الشمالية الى جنوبي اميركا
الجنوبية الى بلاد الفلبين وقلب السودان وبلاد الترنسفال ورأس الرجا الصالح ونعل
بعضهم الآن في نواحي الصين او في قلب بلاد اليابان

والتأمل يرى ان المهاجرة كانت تزايد على نسبة تزايد عدد المتعلمين والمتعلمات وليس
لذلك من سبب الا ان التهذيب الذي تهذبه يزيد من افلاس البلاد حتى اذا ما أتم الطالب
ايامه المدرسية واخذ شهادته العلمية او الطبية او الصيدلية او التجارية لا يرى معه شيئاً
من رأس مال يستند اليه ولا هناك في البلاد رأس مال يحمل علمه والنتيجة ظاهرة انه لا يجد
بدأ من المهاجرة فيها جبر

فان قيل ان المهاجرة طبيعية وقد تكون دليلاً على تقدم البلاد قلت نعم لكن في غير
الحالة التي نحن فيها اما في حالتنا نحن فلا لان سكان سوريا لم يزد عددهم على ما تتحمله
البلاد بل هي تتحمل أضعاف أضعاف الأهلين في الوقت الحاضر فالمهاجرة اذن غير
طبيعية وهي دليل واضح على قلة رأس المال بين ايدي الافراد الذين يهاجرون وفي
البلاد عموماً

أيها الطالب العزيز الذي تباهي في الاسراف وكثرة النفقات حتى تستنزف على تعلمك
آخر غرش في جيب أهلك وتركه في آخر سنيتك المدرسية صفر اليدين لا مال صامتاً ولا
ناطقاً لديه بل كثيراً ما تتركه وقد رهن بيت سكنه نفقة عليك وتحمل المطالب بذخك
واسرافك قل لي يا هذا ماذا يبقى أمامك عند نهاية أيامك المدرسية الا المهاجرة الى حيث
ترى نفسك مضطراً ان تصرف معظم ما بقي من نشاطك وقوة شبابك لتفك مارهنة أبوك

علي تعليمك ثم بعد ذلك تنفق نفسك وقواك في إعداد معدات لبيتك حتى اذا صرت صاحب بيت وتوجهت خواطرك لاعالة قياتك وفتياتك وأيتانك لم تذخر شيئاً ولا تستطيع ان تذخر بعدُ ويعود الدور بين أولادك وبينك على مثل ما كان بينك وبين أبيك . وإذا كانت الحال على هذه الصورة فهيات هيات ان ترى بلادك الا على ما هي عليه الآن . وهيات هيات ان يكون في طوقك ان تزيد على حالتها الحاضرة ما تصبح معه على حلم ان تصير اليه . وكل آمالك بل أحلامك الآن تموت عند ما تستيقظ في أيام كهولتك لانك لاترى بين يديك رأس مال تستغني عنه يستخدم في ترقية شؤونها وزيادة قوتها وفلاحها . وبلاجمال فالتهذيب الحالي لم يبلغ ولا يبلغ بنا المقصود ولا هو مما يركن اليه في تلافى أمرنا؟ ايها السادة . اذا أردنا ازالة الداء فلا بد من معالجة أسبابه الرئيسية وإزالتها أولاً . وليست هذه الاسباب الجهل على ما ارتقى ولا قلة الشبان المهذبن على ما يتنا ولا هي ايضاً كسل الاهالي وتراخي أيديهم عن العمل لأن المتأمل الحبير يعلم أن الصانع اليوم أنشط من صانعا بالامس وأكثر منه إكباباً ومثارة على العمل . وكذلك فاعلنا وزارعنا وبستانينا ومستخدمنا وتاجرنا وكانينا ومحاسبنا ومعلمنا فان جميع هؤلاء يشتغلون ويجهدون في العمل فوق ما كانوا عليه في الماضي

وكذلك ليس السبب ايضاً عدم وجود الشركات العمومية لان عدم وجود هذه ليس سبباً في الافلاس أو تسارع أفراد الامة اليه بل هو نتيجة عنه . فان من الحقيقة التي لا تسكر عند ذوي البصيرة ان عدم وجود الشركات العمومية سبب من عدم وجود رأس المال اللازم لها بين ايدي الافراد لا سبب لتقص رؤوس الاموال هذه . نعم لو وجدت هذه لزاد بها رأس المال ولكنها لا توجد اولاً إلا بعد ان يوجد رأس مال بين أيدي الافراد غير رأس المال الذي لا بد لهم منه لادارة حركة أعمالهم الاعتيادية . وأزيد ايضاً من غير ان أنسب الى الاطراء والتعلق للهيئة الحاكمة ان السبب فيما يهددنا من التسارع الى الافلاس ليس هو عدم الامن ولا هو من اختلال إدارة الاحكام واعمال العمال الذين تقصر اجراءاتهم عن ان تأتي مطابقة للدستور لان الامن الآن هو فوق ما كان عليه بكثير منذ خمس وعشرين سنة ودليله اتساع دائرة الزراعة والصناعة والتجارة فقد زاد المزرع في البلاد وزادت حاصلاتها وتجارتها وصناعتها الى ضعف ما كانت عليه قبلاً ان لم يكن الى أكثر من ذلك . ويستحيل ان تكون هذه الزيادة ما لم يكن الامن قد زاد واما تقصير العمال فأراه يكاد يكون مسبباً عن نقص رأس المال في البلاد لا سبباً له . نعم لا أنكر انه كان خيراً للبلاد لو لم يوجد مثل هذا التقصير وانه سبب ايضاً في قلة

رأس المال لكنه ليس سيباً أولياً بل سيباً ثانوياً ويمكن إزالته شيئاً فشيئاً مع زوال السبب الاولي وفقاً لما تقتضيه ضرورة الوجود

والخلاصة ان كثيراً مما يذكر انه سبب لتأخرنا وتسارعنا الى الافلاس اما ان لا يكون سيباً أصلاً او يكون سيباً ثانوياً لا أولياً وما لم نعلم السبب الاولي ونسعى في إزالته فلا يرجى لنا نجاة مما نحن صائرون اليه . وعندني ان السبب الاولي إنما هو إسرافنا وتبذيرنا أولاً من حيث نحن أفراد وثانياً من حيث نحن أمة . واليك بيان ذلك ولو بمراجعة ما معنا اليه سابقاً ولنبدأ بإسرافنا من حيث نحن أفراد

رأينا الحاجة الى العلم فكثرت عدد المدارس عندنا ولكننا اسرفنا في النفقات على تعليم اولادنا لاننا لم نبق لهم رأس مال يستعينون به بعد خروجهم من المدرسة بل لم نبق لنا أعني الابداء رأس مال نستعين به على تحصيل مقتضيات اليش لا مالا في الجيوب ولا أملاكاً تستمر حتى باع البعض في سبيل ذلك او رهنوا بيوت سكهم وأى إسراف فوق هذا الاسراف . كثرت أجور صناعاتنا فصارت ضعف ما كانت عليه أولاً ولكن لم نجد علينا ذلك لان صناعتنا اسرفوا في نفقاتهم على طعامهم وشرابهم وكسوتهم حتى أصبحت هذه اما تعادل أجورهم او تزيد عليها . فترى الشاب منهم ينفق جزافاً على طعامه ولباسه ودخانه وشم هوائه كما هو من اصحاب الاموال الكبيرة فيأتي آخر الشهر او آخر السنة فاذا هو لم يدخر في كل سنته شيئاً رأس مال يستعين به على تحسين حاله بل كثيرون منهم يبقون عليهم ديوناً يطالون بها

وليس الشاب المستخدم يارقي حالاً من الشاب الصانع لانك ترى احد هؤلاء في لباسه ونفقات طعامه وجيبه وترى مخدمه فلا يظهر لك من نفقاتها ايها الخادم وايها المخدم بل قد تظن الخادم مخدمواً احياناً . واذا حدثت احد هؤلاء فذكر لك ما ينفق على طعامه وشرابه وكسوته ونوع الدخان الذي يدخنه ومقدار ما يدخنه في اليوم او ذكرك ، انفق على شم هوائه مع اصحابه (وقد لا يكون مبالغاً) ظننته يأخذ من الاجر ثلاث مرات او اربع مرات ما يأخذه حقيقة . وما هي نتيجة كل ذلك ؟ انه يقضي ايام شبابه مقلساً وربما يموت كذلك . واما ابناء المدارس واسرافهم في النفقات على لباسهم وجيوبهم فامرهم اشهر من ان يذكر ولقد اصبحوا مضرب مثل في الاسراف والتبذير وهم لا يفتنون

وعلى ذكر الطلبة اراني مضطراً الى ذكر المعلمين اي خدمة العلم ومربي العقول ومهذي الاخلاق ومثال الحكمة والرؤية ولكن كيف نجد هؤلاء الافاضل أقل اسرافاً

هم من الطلبة؟ انا لا استطيع ان احيب بالايجاب بل اقول بكل اسف انهم — وان كنت لا نجد في المئة منهم عشرة ينام احدهم مطمئناً في أنه اذا توقف عن العمل شهراً واحداً لا يحتاج الى مساعدة الآخرين — هم مع ذلك مسرفون يتظاهرون الى التأنق في الملابس والمآكل والمظاهر الخارجية كان احدهم رب الالوف من الجنيهات وقطر امراته واولاده مثل مظهره ان لم يزيدوا عليه ونذر ان يموت احدهم غير فقير ويترك اولاده غير عالة

دعونا من المعلمين والطلبة واصحاب الحرف والمستخدمين بل دعونا من الطبقة الوسطى من اهل الصون والسترة عن آخرها . مساكين جميع هؤلاء فانهم يبدأون بالحياة ولارأس مال معهم ويموتون وأكثهم لا يتركون شيئاً الا الدين وان كان جزئياً واولاداً في الغالب عالة على ذوي قرباهم . ولتأت الى اصحاب الاملاك والعقارات فان هؤلاء زادت املاكهم وعقاراتهم وزادت مداخيلهم ايضاً ولكن ما ذا نفعت البلاد من تلك الزيادة وهم في نهاية شوطهم تراهم اصبحوا وقد اتقلتهم الديون حتى كادت تستغرق كل املاكهم ومقتنياتهم وما لذلك من سبب الا الاسراف في النققات والخروج عن خطة الفطرة الى التفايد في كل شيء تقريباً ومباراة اصحاب الملايين في اوربا واميركا

بقي علينا التجار والصارف وهم من تتمرب اليهم فضلات اموال البلاد او ما بقي من هذه الفضلات التي انفقها اهلها جزافاً على كل شيء اجنبي ماذا صار لهذه الاموال التي هي عمدة نجاح البلاد وعلى نسبة الموجود منها يكون حالها من القوة والضعف والتقدم والتأخر ؟ اباقية هي على ما كان ينبغي ان تكون ؟ واسفاه ان ما سلم من اسراف المتوسطين واصحاب الاملاك والعقارات لم يسلم من اسراف التجار والصارفة الذين استقوتهم البورصة فاضاعوا فيها اغلب ما كان ينبغي ان يذخر في البلاد ويستخدم في اعمام الزراعة والصناعة . هذا هو داؤنا اي الاسراف وهو السبب الاصلي في مسارعتنا الى الافلاس والخراب ونحن اقتراد

ولو نظرتم بنا من حيث اننا مجتمع وامة لرأيتم الاسراف قد بلغ قينا مبالغه لاننا كأمة قد ماتت نفوسنا واعتبارنا لنفوسنا فاصبحنا محقر كل ما هو وطني وتصرف عنه ونعظم ما هو اجنبي ونقبل عليه وقد اسرفنا في الامرين كل الاسراف حتى امتنا صناعة البلاد والجانا الصانع اما الى المهاجرة واما الى التحول والموت فقراً . وشاهدي قريب فاني اسألكم رجالا ونساء تلبسون ايها الرجال من منسوجات الشام وحمى والزوق ام تلبسن ايها السيدات من حرائر البلاد المنسوجة على انوال بيروت والشام وطرابلس

والاستانة ؟ ما اظن احداً منا يجيب بالاجاب بل بدأ كثير من متأقينا على ما المعنا ان يأمروا فتخط أحذيتهم واثوابهم في باريس ولندن وغيرها من المدن الغربية استكباراً لصناعة اولئك واحتقاراً لصناعتنا مع ان الفرق هنا مما لا يقد به بين الصناعتين . وهذا منتهى الاسراف ومنتهى الصغار أيضاً وضعف النفس في الامة

ايها السادة والسيدات داؤنا الاسراف والتقليد الفارغ وهما السبب الاول في تسارعنا الى الافلاس والحراب ولا يوقفنا عما نحن مسرعون اليه الا الاقتصاد وترك التشبه والتقليد فان لم تقتصد ايها الطالب في ثقتك بقدر ما تستطيع افنيت رأس مال أيك وتركته لا يستطيع ان يأتي بعمل بعد ذلك للقيام بنفقاته ونفقات بقية افراد عائلته وتركت نفسك بالضرورة ايضاً ولا خيرة لك الا المهاجرة والاغتراب حيث تصرف قوى عقلك ونشاط شبابتك في غير بلادك وتخدم غير نفسك واهلك وانت لا تدري

ان لم تقتصد ايها المستخدم والصانع في لباسك وطعامك ونفقات جييك ليتأتى لك ان تذخر في كل سنة شيئاً تعده رأس مال لمستقبلك بقيت طول عمرك مستخدماً وصانماً واورثت لبنيك الفاقة والمذلة او اضطرت الى الاغتراب والمهاجرة . وهيات ان تكون هناك أكثر من خادم او صانع تخدم غير ذوبك وتستصنع لغير بلادك وأهلك

ان لم تقتصدوا يا أصحاب البيوت في نفقاتكم من صغيرها الى كبيرها بقيتم على ما اتم عليه تعلمون النفس بالاماني والاحلام الفارغة او تشكون الدهر واتم تزجون العيش تزجية . واذا افضى احدكم لا سمح الله الى المذلة والفقر فلا نلومن الا أنفسنا على سوء تديرنا وعدم اقتصادنا

ان لم تقتصدوا يا أصحاب الاملاك والعقارات الكبيرة فلا تأمنوا مغبة الدين وان تنتقل أملاككم وعقاراتكم الى ايد غير ايديكم او غير ايدي بنيتكم ولا تكون مع الايام الا يداً اجنبية اقدر على ادارة الاملاك واعرف بسبل الاقتصاد والارض لله يرثها الشيطون المقتصدون

ان لم تقتصدوا يا تجارنا وصيارفنا . ان لم تتوقوا أسراك البورصة ونهبوا منها هربكم من الافعى جررتهم أنفسكم الى الافلاس الماغل وجررتهم البلاد بأسرها معكم الى الحراب والدمار . والخلاصة ان داءنا الاسراف ولا ينجينا من الافلاس والحراب المتسارعين اليه الا الاقتصاد وقد بذلت لكم نصحي وما أنصح الا نفسي وأهلي والسلام

انتقاد فتاة مصر

قبل ان ابدأ بانتقاد هذه الرواية البديعة في بابها اقول اني كنت اقرأ فتاة مصر كما كنت اقرأ بقية مقالات المقتطف الرائعة واعيد النظر فيها كما اعيد النظر في تلك فتأخذني نشوة من حسن اسلوبها وما اودعه الكاتب في مطاويها من افكاره العمرانية وانتقاداته البديعة الفلسفية إن في ما يتعلق بأسباب الحرب الروسية العمرانية او في ما يتعلق بأحوال مصر الاجتماعية والزراعية او في ما يتعلق بالماليين وتأثيرهم في هيئة المدينة الحاضرة

والحق يقال اني كثيراً ما كنت اقدم قراءتها على قراءة بقية مقالات المقتطف لا لمجرد الفكاهة واللذة المرادة من كتابة اغلب الروايات بل لما كنت ارى فيها من الحقائق العمرانية والسياسية وما ترمي اليه من اصلاح الاخلاق والعادات والتعريض ببعض ما اضر بنا من الاقبال على ما كان يشرف بنا على شفا جرف من الافلاس والحراب واشتدت غوايتنا به حتى عم او كاد يم غنينا وفقيرنا علمنا وجاهلنا تاجرنا وصانعنا واعني بذلك مضاربات البورصة والتفحم فيها على الحراب ونحن لانشعر

واقول ايضاً اني بعد ان قرأتها اجزاء وقت صدورها عدت فقرأتها مجلدة مرتين فما زادني قراءتها الا اعجاباً بها ويقيني انها من خير ما ألف لهذيب شباننا وانها اجدر كتاب حتى الان يحسن بنا ان نضعه بين ايدي شباننا وطالبة مدارسنا يقرأونه اولاً لما فيها من حسن الاسلوب ودقة التعبير مضافاً الى ذلك فصاحة الالفاظ وبلاغة التركيب وسلامة الذوق . وثانياً لما فيها من المرامي والمقاصد الحكيمية والفلسفية العمرانية ولا سيما ما ينبغي تنبيه اذهان الشبان اليه من قوة المال والماليين وانه لا تقوى امة او تصير شيئاً مذكوراً ما لم يجتمع عندها بكدا افرادها واقتصادهم رأس مال يعدونه لطوارق الحدثنان بغالبون به بقية الامم ويزاحمونهم على موارد التجارة والاتضاع وينازعونهم بكثرة السطوة والوجاهة

فلا يجد في الدنيا لمن قل ماله ولا مال في الدنيا لمن قل مجده

وهنا اشكر لاستاذي الدكتور صروف واضع هذه الرواية لانه اجاب ملتسمي في طبعها على حدة لينتفع بها التلامذة خصوصاً وانها وفست بالغاية التي من اجلها التمس منه طبعها وحدها وهي الان كتاب مطالمة لا اكثر من ستين بل سبعين طالباً يتمرنون بمطالعتها على تطبيق قواعد النحو على ما يقرأونه ويتحدثون اساليبها في الكتابة والانشاء وقد وفست بهذين الفرضين فضلاً عما يجده فيها الطلبة من الفوائد العمرانية والاخلاقية المقصودة رأساً من تأليفها

وانرجع الآن بعد هذه الديباجة او التمهيد الى غرضنا الاصلي من الانتقاد عموماً
واتقاد هذه الرواية خصوصاً

أنواع الانتقاد

(اولاً الانتقاد النحوي)

واكثر كتابنا اذا اتقدوا وجهوا همهم الى هذا النوع من الانتقاد فاذا رأوا عرضاً
المرفوع منصوباً او مجروراً او بالعكس اكثروا الصياح والجلبة على السكاتب فرموه بالجهل
والفهاهة واكثروا من ذلك يهولون بعلمهم وفضلهم واتخذوا ذلك ذريعة للتنقص من
السكاتب والغضب من كرامته والانحاء على علمه وفضله تهكماً واستخفافاً واولى بالمنتقدين
منا ان يُقلعوا عن هذا الانتقاد الناقه فانه ان دل على علم من جهة فهو دليل على جهل
من جهة اخرى . وسببه ان اكثر ما يقع من هذه الاغلاط انما يقع عن تسرع السكاتب
وقلما يخل مع ذلك بفصاحة او بلاغة لان المعنى يكون ظاهراً ظهور الصبح حتى قلما يفتن
له احد الا المتحري له بل ربما كان ما عدَّ غلطاً لا يُعدُّ كذلك الا على مذهب مخصوص
والعاقل يعلم ان علامات الاعراب في اللغة انما هي من قبيل الاناقة والمواضعة لا من قبيل
الجوهر والحقيقة فنمَّ قد لا يُعدُّ الاخلال بها اخلاً لا يقضي على المحلِّ بالجهل وعلى
الناقد بالفضل بل كثيراً ما يكون الامر على عكس ذلك لان لسان حال الناقد المحتفل بهذه
الاغلاط المعطمط لها يشهد عليه ولا سيما اذا جرى على مذهب مخصوص انه حسب العرض
جوهرراً والآلة غاية وهذا هو الجهل بعينه . هذا ولو كان الاعراب امراً جوهرياً في
الخطاب والسكاتب لما سقط من العبرانية والسريانية خطاباً وكتابة وهما اختا العربية او
اقله لما سقط معظمه من على السنتنا في كل البلاد العربية حتى من على السنة المشتغلين
بالنحو لاشغل لهم سواء وقد فرغوا كل اوقاتهم لدرسه وتدرسه لا يعرفون سواء ولا
يحفلون بغيره من بقية انواع العلوم

ولا يؤخذ من قولي هذا أن النحو علم لا ينفع وجهالة لا تضرُّ حاشالي ان أقول
ذلك وأنا من معلمي النحو والمشتغلين بدرسه وتدرسه منذ عشرين سنة ونيف بل أنا ممن
يمتقدون ان علم النحو العربي قد يكون بفضل استاذ من أفضل انواع العلوم التي تدرس
في المدارس العالية لتقوية قوى العقل في الشبان ولا سيما قوى الفهم والقياس والاستنتاج .
وهو من هذا القبيل لو وُضع في كفة ميزان ووُضع في الكفة الاخرى علمان آخران
— أي علمين كانا — المنطق والفلسفة — الجبر والهندسة — الكيمياء والفلسفة الطبيعية

— الحيوان والنبات — التاريخ واللغة الخ — لرجحهما فهبطت كفته بسرعة الى الارض وشالت الاخرى الى السحاب. ولكني مع اعتقادي هذا لا أرى انتقاداً نافهاً على كتاب علم أو فلسفة اتفه من الاقتصار على اتقاد هذه الحركات والسكنات الاعرابية أو التهويل بها كأن العلم كله في محربها والجهل كله في الغفلة أحياناً عنها. أقول ما أقوله وأنا أحمد الله ان فتاة مصر لا مجال فيها لهذا الاتقاد التافه فاني لم ألاحظ أغلاطاً من هذا القبيل الا أن تكون غلطة مطبعية ظاهرة للعيون ظهور الشمس في رابعة النهار حاشا عين المتعنت المتحدلق في النحو ولا أذكر اني مررت على غلطة من هذا القبيل أو ما يضارعها الا في صفحة ٢٦ آخر الوجه فقد جاء فيه هناك — أنا لا أطبق أتلقى نفسك في أيدي هؤلاء اللصوص — والمرجع ان الكاتب أراد ان تلتقي نفسك — فسقطت التون في هذا الموضع غفلة من صيف الاحرف أو تسرعاً من الكاتب ولم يشعر بذلك كما يحدث كثيراً مع كل كاتب على ما يُعلم بالاختبار (١)

(ثانياً الاتقاد البياني)

وهو أعلى شأنًا وأكثر فائدة من الاتقاد على مرفوع أو منصوب أو مجزوم أو مبني على السكون أو احدى الحركات . ومداره على التعقيد والالتباس فحياً وُجد هذان فهناك محل للتقد واما حيث البيان وظهور المراد على أعماها في المفردات والتراكيب فلا موضع له وان محل له موضع مع خلو الكلام عما ذكرنا من الالتباس والتعقيد فهناك الحُبط والجهل الفاضح (وان كانا لا يُعلمان عند كل الناس) وليس مرادي الآن ان أتقلد في هذا الموضوع من التقدير وبيان جميع ما يدخل تحته فانه بحر واسع لا ساحل له. وأكثر الكتب الموضوعية في فن البيان مما يطبق على موافقته لضوابطها أو مخالفتها غير مجرح فيها ولا ترجع ضوابطها الى اصول كلية لا مجال للاعتراض عليها ولذلك كان الذوق السليم أولى أن يحكم غالباً دونها وهو اذا رجنا اليه في اتقاد فتاة مصر رأيناها لا غبار عليها الا في مواضع قليلة جداً وأكثرها من قبيل استعمال الفصيح مع وجود الافصح او ما يقارب ذلك . ومن هذه المواضع ما جاء في وجه ٤٠ - وانقض رأبهم على ان الخواجه لافي يدبر الامر بحكته - أي وانقض مجلسهم فان الانفضاض في الاصل للمجلس لكن لحصول الرأي في ذلك المجلس نسب الانفضاض اليه . وهو من قبيل اقامة الحال في

(١) (المتطف) لقد تمحربنا انطاق الناس بما ينطقون به عادة فكلمة « أنا لا اطبق » مقولة على هذه الصورة مقطوعة اي أنا لا اطبق ما نفل او ما يفعل والجملة بعدها استثنائية او ابتدائية ولو وضعت نقطة بعد كلمة اطبق لسكان ذلك ادل على المراد

المكان مقام المكان ويمثلون له بقولهم - وتنادى أصحاب الجنة أصحاب النار - أي جهنم لكن لما كانت الملابس بين الرأي والمجلس أكثر بعداً عما هي بين النار وجهنم في الآية التي يستشهد بها كانت لذلك عبارة فتاة مصر من قبيل استعمال الصحيح الفصح دون الافصح . وما يجري هذا المجرى ما جاء في صفحة ٤٣ حيث يقول - فكانها أموال تفترضها الحكومة وتمطيها للاهالي برأ معتدل لا يستطيعون الاقتراض بهم - وكان الاولى علي ما اري لو قال - لا يستطيعون هم ان يقترضوها برأ مثله او برأ من مثله . وكذلك ما جاء في وجه ٥٦ - وحليمة اخت حليم بك من اجل البنات التي وقعت عليهن عيني . ووجه ١٠٧ - كلاً ولكن هزري نفسه اخذ مکتوبها وكتب لي حاشية فيه يقول فيها وتركيب العبارتين فصيح لا غبار عليه الا ان حسن الرصف يقضي بتأخير المجرور عن (عيني) في العبارة الاولى وتقديمه على (حاشية) في الثانية . ومع ذلك فالفرق بين العبارتين على اصلهما وبينهما على ما صارتا اليه زهيد جداً ولا سباً في العبارة الاولى . وربما وجدت مواضع اخرى من قبيل العبارتين اللتين ذكرناهما لم انتبه اليها ولكنها قليلة جداً وبالاجمال أقول ان الذوق السليم يشهد ان «فتاة مصر» جاءت من اولها الى آخرها كأنها النيل المبارك يجري مدلاً بمظننه وجلالة قدره بين الجزيرة والحيرة في جوار القاهرة . واليك بعض شذرات منها

هزري - اذا أنت تفكرين فيهم اما أنا فاني باذل جهدي لكي أنسى ما مضى فلا أستطيع ويخطر ببالي احياناً ان اعود من السويس ولكن السفينة تقوم صباح الاثنين ولا تقوم سفينة بعدها الى اليابان توماً الا بعد اسبوعين ومهتي تقضي علي بالذهاب في هذه السفينة وقد ضاقت بي الحيل ولا اعلم كيف اعمل . أيجوز ان اضحي بمواطني كلها لاجل عمل لا ينالني منه ربح مادي ولا ادبي . لماذا نذهب الى بلاد اليابان ؟ لخدمة المائلين لكي تكثر اموالهم اما جمهور الاهالي الفلاحين والمعدنين والصناع وهم التسعة الاعشار فلا يستفيدون شيئاً . والماليون ايضاً لا يستفيدون لان زيادة المال لا تزيد الراحة بل تزيد التعب . لورد بنشيلد تقدر ثروته بأكثر من ثلاثين مليوناً من الجنيهات ودخله اليومي بأكثر من ثلاثة آلاف جنيه وقد سمعت منه ان ما يتفقه على نفسه في ما أكل ومشرب وملبس لا يزيد على ثلاثة جنيهات في اليوم يأكل في الصباح بيضة ويشرب كأساً من القهوة واللبن ويأكل الظهر قطعة من السمك وقطعة من اللحم وقليلاً من الخبز والخضر والفاكهة ونحو ذلك في المساء وان زاد بُلي بالتخمة ويلبس مثل ابسط الناس وما هو الا وكيل على امواله بهم نهاراً وليلاً بتشغيلها وتسميرها فلو بلضا مبلغه من الثروة لزدنا طمعاً وتعباً . النظري

كيف نحن الآن مسخران لغيرنا. كيف دست قلبي وعواطفي وخرجت من بيت واصف بك وابنه على فراش الموت ولا امل ان اراه بعد الآن وبهية تبكي وتوح ويكاد قلبها ينفطر حزناً عليه. تصوري نفسك مكانها وان مركبة الترامواي داستني فقتلتني او كادت ولك حبيب او صديق لا بد له من ان يتركك في تلك الساعة تصوري نفسك مكانها

فانوررت عينا دورا بالدموع وقالت له اني اعرف ما يختلج في فؤادك وأؤكد لك ياهنزي اني احب هذه الفتاة كما تحبها انت واني آسفة جداً لفراقها على هذه الصورة ويكاد قلبي ينفطر عليها وعلى امها ولكن الواجب اولى بالاتباع ونحن مرتبطان بهذا السفر ولا مناص لنا منه واذا بقينا في مصر لا نقدم ولا تؤخر ويقيني ان امين بك يقوم من هذه السقطه واطن اتنا نجد تلغرافاً منهم في السويس يطمئنا عنه والا فلا بد لنا من ان نرسل تلغرافاً نسأل به عن صحته (قناة مصر وجه ٥٢ — ٥٣)

اقراً ايضاً وجه ٥٧ و٥٨ الى آخر السطر الثامن منه . ووجه ٦٦ و٦٧ الى آخر السطر السابع منه . ووجه ٧٠ الى السطر الخامس قبل الاخير . ووجه ١١٤ الى آخر كلام لادي برون وجه ١١٦

ولو اردت ان اشير الى كل كلام اتيق معجب لبلاغته او للحكمة المودعة فيه او للحقائق العمرانية الواقعة فعلا ونحن في غفلة عنها لا نثرت الى اكثر من ثلثي هذه الرواية البديعة ولا اراني مبالغاً

(ثالثاً الانتقاد اللغوي)

وكثيرون من منتقدينا يأتون في هذا النوع من الانتقاد بالمبكمات المضحكات ولا احاشي جلة من اكار علمائنا وكتابتنا معاً . والغريب ان بعضهم يكاد ينكر القياس فلا يجيز في الاستعمال الا ما نص عليه في كتب امهات اللغة فان لم ينص الصحاح او الفيروز ابادي او لسان العرب على احتار مثلاً يؤخذون من يستعملها ولو تابع في استعمالها كثيرين من اكابر الشعراء والفقهاء . وكاد العلامة السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار المشهورة يهوي في مهواة هؤلاء الاقوام فانه على سعة علمه لم يرقه على ما يظهر استعمال بعضهم « احتار » مع معرفته ان قد استعمالها قبله الامام ابن الفارض المشهور . وبعض غيره من اكابر الفقهاء كصاحب الكتاب المسمى برد المحتار على الدر المختار . وكنت أعجب من تضيق هاتيه الفئة كل هذا التضيق وما الذي يعتمدونه في الاخذ بهذه الخطة التي اخذت بخناق الكتبة والمؤلفين وخالفت مبدأ لغة هي من اشهر لغات العالم باعتمادها على القياس وبمناسبة اوضاعها له في هذه الحركات والسكنات الاعرابية الى ان وقفت على ما كتبه العلامة

الفيلسوف الامام الغزالي في الرد على المشبهة والحشوية في كتابه إلجام العوام فترجع لي ان كلام الامام هناك استهوى القوم فقاوسوا عليه لكن حيث لا يصح القياس لوجود الفارق فأدى قياسهم لسوء الطالع الى ما كاد يبطل القياس في الفاظ اللغة حيث تمس الحاجة الى القياس وحيث لا مانع يمنع منه عقلا او نقلا وبيان ذلك

انه ورد في الكتاب والسنة الفاظ في حق الباري سبحانه وتعالى توهم الجسمية كاليد والعين والاستواء والنزول وغير ذلك مما اخذها الحشوية دليلا على التجسيم واستغفوا بها العامة وبعض الخاصة بزعمهم ان ذلك مذهب السلف فتصدى الامام للرد عليهم واليك بعض كلامه قال : وحقيقة مذهب السلف ان كل من باغه حديث من هذه الاحاديث من عوام الخلق يجب عليه فيه سبعة امور (١) التقديس (٢) التصديق (٣) الاعتراف بالمجزر (٤) السكوت (٥) الامسك (٦) الكف (٧) التسليم . ثم فسر الامسك بما نصه بالحرف الواحد قال : واما الامسك فان لا يتصرف في تلك الالفاظ بالتصريف والتبديل باغية اخرى والزيادة فيه والنقصان منه والجمع والتفريق بل لا ينطق الا بذلك اللفظ وعلى ذلك الوجه من الايراد والاعراب والتصريف والصيغة

ثم افاض الامام في هذا الموضوع عما هو غاية في بابه وحري بكل عالم من علماء الكلام عند المسلمين وبكل عالم من علماء اللاهوت عند المسيحيين ان يقف عليه فانه مما تتناول اليه الاعناق وتطمح الى مثله الابصار في كل زمان ومكان . ولا يبعد عندي ان علو طبقة كلام الامام الغزالي في هذا المقام الكلامي التنزيهي هو الذي استهوى اهل هذه الفئة التي اشرنا اليها فمتمموا الامسك في كل الفاظ اللغة مع ان الامام خصه ببعض الفاظ منها وردت في القرآن وفي بعض الاحاديث مما يوهم التجسيم وبذلك حظروا على الكتبة والمتكلمين استعمال القياس حيث لا محذور من استعماله فابطلوا القياس بالقياس فيا للغرابة ويا للفهم والنظر الصحيحين

والغريب ان بعضا من اهل هذه الفئة يتساحون في القياس الا انهم يتأبون كل لفظ قاسته العامة او استعملته على سبيل الكناية او المجاز مع ان مسوغ القياس والمجاز هو من الظهور حتى لم يخف على هؤلاء وربما استعملوا بدلا من ذلك اللفظ لفظا آخر هو في الاصل قياس او مجاز من ذلك خابره في مسألة كذا او تخاروا فانهم لا يسوغون استعمال هذه اللفظة وبمدلون عنها الى نابه في مسألة كذا وتناوبا مع ان هذه الاخيرة مأخوذة من النبأ والاولى من الخبر والنبأ والخبر بمعنى واحد الا ان الخبر اعرف واعم واشهر . وكذلك يأبون استعمال تكاتفوا على كذا من الكنف ولا يرون انها كتظاهروا من الظاهر

على حين ان وضع الكتف للكتف في التعاون اقرب للفهم لانه اكثر مشاهدة من وضع الظهر للظهر . وبعضهم يرون استعمال التوفير من الكباثر ليس الا لان العامة تستعمله بالمعنى الذي يراد استعماله او وضعه له . وبعضهم يشدد النكير على طائفة الرجل بالمعنى الذي تستعمله العامة مع انها « كماقولة الرجل » من طالع عياله كفاهم معاشهم وماأنهم او من حال الشيء فلاناً اهمه ومقادها بالقياس على عاقلة الرجل انهم الجماعة الذين بهمونه ولا اوضح من الكناية بها على نفس المعنى الذي يراد في الاستعمال الدارج . ومثل ذلك تشديدهم على الدارج . والخارج . والخارج . اذا استعملت بالمعاني التي تستعمل لها في الدارج . كل هذا غفلة عن النظر الصحيح وقد جرأ اليه ما سهوى القوم من القواعد الموضوعية لتزيهه الباري تعالى عن الجسمية على ما المعنا اليه . فيا لله . متى نعدل عن هذا التحرج الذي يقضي العقل والنقل بتركه

ولا يسعني المقام الآن ان اخوض في هذا البحث الى نهايته وربما عدت اليه في وقت آخر اذا فتح لي المقتطف الاخر مجالاً بين صفحاته (١) وانرجع الى فتاة مصر فاقول ان الكاتب قال في صفحة ٧١ آخر الوجه — ولكن الرجل الغني المطموع فيه يتناشئ الناس من كل جهة — فان كان يبدأ الفئة التي اشرنا اليها صحيحاً كانت لفظة — يتناشئ — فيها شيء من العامية وعندى ان هذه العامية هي في متهى القصاحة وباليه الكاتب جاء في روايته بمئات من امثال هذه اللفظة فانما لم يخرج عن القياس الواضح الذي لم يتغيب حتى عن العامة

(دالماً الانتقاد على الواية)

كان يستشهد الكاتب بيت من المنظوم او بفقرة من المنشور فينسبها الى غير قائلها او يورد فيها رواية اخرى غير المشهور فيتذرع المنتقد بما ورد من الخطاء الظاهر او الحقيقي الى التقصص من الكتاب والتهويل بما ارتكبه من الخطاء . وقد يكون كل ذلك مما لا طائل تحته بالنظر الى غرض الكاتب . وقد ورد من هذا القبيل في فتاة مصر وجه ١٧٦

فقد تغيب الايام حالات اهلها وتمدو على اسد الرجال الثعالب
وفي البيت رواية اخرى وهي (٢) وتمدو على اسد الدجال الثعالب

(١) (المقطف) على الرحب والسعة فان المبتدئين بالكتابة لى غاية الاحتياج الى من يشدد عزائمهم ويسهل عليهم السير في سبيل القياس
(٢) المقطف ما ذكرناه ليس رواية اخرى بل تصحيف في الطبع لم يتنبه له وقت تصحيح للسودات فنشكر فضل المنتقد على تنبيهنا اليه

وارجح أنها الرواية الصحيحة ولكني لا ارى هذا التصحيح يزيدني فضلاً او علماً كما انه لا ينقص كذلك من قيمة الرواية او من علم الكاتب وفضله وبالا جمال ان كلا من الانتقادين في اللغة وفي الرواية ولاسيما الاول قد يكون ناهياً وقد يكون معتبراً . اما المعتبر فهو الانتقاد على الالفاظ القلقة في مواضعها وهناك الفاظ ارسخ منها واشد استحكاماً في مواضعها يمكن ان توضع بدلا منها . او تكون الفاظاً مترادفة لا يعرف الكاتب الفرق بينها في اصل الوضع فيظن ان المجاز المستعمل في الواحدة منها يصح في صاحبها فيخطئ بالفرض ويفوته بذلك طلاوة الكلام وحسن وقعه في النفس واما هذا الانتقاد على الالفاظ لانها مقاسة مع ظهور دلالتها على معناها ولا ظهور الصباح او لانها مما تستعملها العامة مع انها في مواضعها مما لا تقوم لفظة مقامها وهي مع ذلك جارية على مجاري القياس في الاشتقاق والمجاز لا يخلل فيها من هذا القبيل الا انها غير واردة في امهات اللغة المتداولة فمن الانتقاد الجدير بنا الاقلاع عنه وان اسف اليه قوم لهم شأن ومكانة في عالم اللغة والادب

(خامساً الانتقاد المعنوي او الحقيقي)

وهو الانتقاد المعول عليه وبه يتنافس العلماء والفضلاء . والمقصود منه تجريح ما في الكتاب المنتقد وبيان مواضع الخطاء فيه ان وجدت والافيان محاسنه وموافيه من المواضيع المهمة النافعة للقراء . ومدار هذا النقد على موضوع الكتاب فان كان كتاباً تاريخياً مثلاً فتجريح النقول فيه وبيان ما اذا كانت مما يعول او مما لا يعول عليها من جهة وما اذا كانت مستوفاة من جهة اخرى . ثم بيان ما اذا كان المستنتج من هذه النقول جارياً على مقتضى الاستنتاج العقلي الصحيح او ملوياً به عنه

وهكذا يقال في ما اذا كان موضوعه ادبياً او عقلياً او علمياً او سياسياً فانه ينظر اولاً الى تمحيص الحقائق والمبادئ ثم ينظر ثانياً في تمحيص المستنتجات من تلك الحقائق وقد لا تقل احياناً فائدة هذا الانتقاد اذا كان مستوفى عن فائدة الكتاب المنتقد ويظهر فيه مقدار علم الكاتبين المنتقد والمُنتقَد عليه وفضلهما . ولا تكون نتيجة مثل هذا الانتقاد الا تنوير البصائر وتوسيع نطاق الحقائق وما يترتب على ذلك من الفائدة علماً وعملاً

موضوع فتاة مصر وابحاشها

موضوعها او الغاية منها فكاهي تهذيبي وابحاشها اجتماعية عمرانية . أما الفكاهة فيها فاحكم ان الكاتب وفاها حقها من تشويق القراء الى الرواية وحديثهم فيها والذي اعرفه في هذا

الصدد أما اعرفه من نفسي واهل بيتي وبعض اصدقائي الذين يقرأون المقتطف وهو لاء كلهم كانوا اذا تأخر عنهم المقتطف يوماً خالوه اسبوعاً وممظهم على ما اعلم كانوا يبادرون حين وصوله اليهم قراءة قناة مصر. وقد لحظت ممن اشرت اليهم جميعهم ان غضبهم على عزرا كان شديداً وبلغ استياؤهم مبلغه عند ما قرأوا الفصل الثامن والعشرين والثلاثين الاول في التهييج والثاني في المرافمة واشتمشوا منهما نجاة عزرا من الحكم عليه فلما ظهرت الحقيقة سري عنهم وبدت عليهم امارات الرضى والابتهاج

واما الغاية التهذيبة في وصف امرأة الخواجه لاثي وامرأة واصف بك وابنتهما وحليمة ودورا ما يفي بها. فان كل ما وصف به هؤلاء السيدات او اسند اليهن من الاقوال والافعال كان غاية في بابه في انه يرفع النفس في النساء الفتيات وربات البيوت ويحبب اليهن الفضيلة والتعقل والطهارة وسلامة النية المقرونة بالفهم وصحة النظر وبرغبتهن في كل ذلك وكل ما قيل عن امين بك وما اصابه واصاب اهله واصحابهم من الغم والحزن هو مما يكره بالبورصة وامثالها من المضاربات التي استغوت كهولنا وشباننا. وهنا اذكر اني بعثت هذه الرواية الى ابني في مدرسة الشوير فقرأها ولما رأته في مساححة عيد الفصح رأيت انه اثر فيه جداً ما قيل عن امين بما كره اليه البورصة وبدالي منه ما يشف عن شدة احتقاره لها ولمن يتطوع جهلا في اشغالها مع انه لا يتم الثانية عشر من عمره قبل يونيو القادم. ولا اقول واقل ما استفاده (وهو من اعظم الفائدة) انه تولد فيه مغت وتقوم شديداً من هذه المغفوة الجهنمية التي ذهبت باموال الكثير من تجارنا وابناء الاغنياء والكبراء منا

وكل ما قيل عن هنري برون هو في بابه خير للشبان والطلبة من عشرين خطاباً موضوعها في الجد وعلو الهمة والتجافي عن البذخ والاسراف وانصراف النفس الى المعالي وبذلها في الواجب وخدمة البلاد والامة والحكومة

واما بقية الاغراض العمرانية من قوة المال والمالين واسباب الثورة الروسية فيكفي الفهم اللبيب ما اودعه الكاتب فيها من الحقائق والمباحث الدقيقة مما هو غاية في بابه. وليس لي شيء اقوله في انتقاد هذا الموضوع الا تحفظ الكاتب وهو ما يتطلبه العلم وحكمة السن وخير للكاتب ان يعرف القارى ما يريد ان يقوله من غير ان يقوله. الا اني لا انكر ميلي الى تجريح ما جاء به الكاتب في صدد الكلام عن مبدأ تنازع البقاء وبقاء الانسب الا اني بعد طول الفكرة وجدت نفسي لا اقوى بعباري على تصحيح ما قيل في هذا الباب الفلسفي الواسع الاطراف وان كنت اشعر بنفسي اني اقوى على ادراك ان هناك خطأ وشيئاً يقتضي التجريح والخلاصة ان هذه الرواية بديعة في بابها واسلوبها البلاغي واجمائها والذي اعتقده انه

لم ينسج بعد احسن منها ولا مثلها وقد خلت من كل تضليل تاريخي يمكن ان يقع في الروايات التاريخية ووقع شيء في رواية قلب الاسد وما هو على شاكلتها من الروايات كما انها خلت ايضاً مما قد لا تخلو منه رواية فكاھية مما يحرك النفس الشهوانية او عاطفة الحب الطبيعي بما يضر الشبان والشابات ويدفعهم الى ما وراء الحد الذي لا يحمد اندفاعهم اليه . وغاية ما اقوله في هذا الصدد اني لا اخشى مغبة من قراءتها على تلميذ او على ابني او ابنتي او او فجزى الله مؤلفها خيراً ولا اقول ما اقول تقرباً من كاتبها فانه استاذي بكل ما يحمله هذه اللفظة من المعنى الحقيقي للاستاذ وانا تلميذه بكل ما يجب ان تتضمنه لفظة تلميذ من المحبة والاعتبار . وليس بين الاستاذ والتلميذ اذا كانا على هذه الصورة ما يسوغ ان يتوهم فيه انه من قبيل التقرب وبمجرد حب الزلفى بوجه من الوجوه والسلام



مهد الجنس السامي

خطبة تليت في صيدا ٢٨ حزيران (يونيو) ١٩٠٧ في حفلة مدرسة الفنون لاميركافية السنوية لاعطاء شهادتها لتلامذتها المنتهين

ايها السادة والسيدات الكرام . لا اعتذر في موقفي هذا عن اني اتخذت هذا الموضوع دون غيره من بقية المواضيع وهي كثيرة لانه موضوع ساقني اليه والى البحث فيه حرفتي الخصوصية فان من درّس النحو العربي في المدرسة الكلية نحواً من خمس عشرة سنة متواليات واضطر الى قراءة آداب هذه اللغة سنين عديدة قياماً بفروض حرفته وايقاء وظيفته حقها لا بد له اذا خير من ان يختار الكلام في موضوع شبيه بموضوعي او في ما يقاربه. بل اعتقد انني وفقت في اتقاء الموضوع لا احساناً مني بل حسنة كانت من السادة والسيدات الذين يسمعون اراد الله ان يكافئهم عليها من حيث لا يشعرون ليعلموا ان جزاء الحسنة لا بضيع عنده تعالى . والا فاما كان ينعني وقد ترك لي ان اتقي الموضوع لنفسي من اني كنت اخذت علم النحو وفائدته وتاريخه وتاريخ الذين اشتغلوا به حتى وصل الى ما وصل اليه في حالته الحاضرة او علم البيان ومنافعه وتاريخ الذين ألفوا فيه كذلك . ولو فعلت ذلك فكيف كانت حالتكم ايها الكرام في اثناء هذه المدة التي لا خيار لكم فيها الا ان تسمعوا وتصغوا احتراماً للوقف العلمي الادبي الذي دعاكم الى احياء هذه الليلة الشائقة - الله اعلم ماذا كانت حالتكم اذن اكدوا ايها السادة والسيدات الكرام انكم مجازون عن حسنة او حسنات صدرت منكم فيما سبق وكان الجزاء اني صُرفت عن الكلام في اسهل ما يمكنني الكلام فيه وفقاً لما تقتضيه حرفتي الخصوصية على ما المحت اليه قلت ايها السادة اني اخترت الكلام عن موضوع له مساس بموضوع حرفتي على انه مع قرابه منها بحسب الظاهر فهو بعيد عنها بعد ما بيننا وبين قلب البلاد العربية مأرب او نجران في بلاد اليمن وشبلي او ساوي في حضرموت ورياض او سدوس في نجد اذا قصد الوصول الى هذه الاماكن او بعضها برأ عن طريق تيماء والحجاز : واي قرب بين النحو والبيان وما اليهما من العلوم العربية من حيث هي علوم آلية وبين مهد الامم السامية ؟ بل عند التحقيق اكثر مما صورناه بالبعد المسكاني المحسوس . ولو علمتم ايها السادة ما عانيت من البحث والتنقيب في الآونة المتأخرة وما بذلته من الفكرة والسهر ليلاً والاستيقاظ باكراً الى متابعة درس هذا الموضوع نهائياً لقلتم جادك الله ولرايتم اني استحق شيئاً من انتباهكم وتوجه اصغائكم الي من غير ملل الى ان اكون قد فرغت من تلاوة ما كتبت

عليكم . والمرجح عندي اني ساحظي بهذا الفضل والمجاملة منكم
تعلمون ايها السادة ان سوريا ووطننا العزيز عموماً وصيداً اقدم مدن هذا الوطن
خصوصاً كانت منذ الوف من السنين ولا تزال لحد هذه الساعة تتكلم بقرع من اللغة السيامية
وبعبارة اخرى كان يقطنها شعب من الجنس السامي يتكلم باللغة السامية . ومثل صيدا صور
وعكا وحيفا ويافا وغزة وعسقلان ويبروت وجيل وطرابلس وارواد وعكار وحمص
ودمشق وسائر مدن سوريا الى ان نصل الفرات ودجلة . بل على شواطئ هذين النهرين
العظيمين قامت اشهر ممالك الازمنة القارة مملكتي بابل واشور . وكان الشعب السائد
والمساط حينئذ في كل هذه الاقطار سامياً او يتكلم باللغة السامية . ومن سواحل هذه
المدينة اعني صيدا العريقة في القدم ومن سواحل صور العظيمة جئمت جاليات استعمرت
سواحل هذا البحر العظيم — البحر المتوسط — شمالاً وجنوباً في اوروبا وافريقيا وحملت
الى تلك الاصقاع التجارة والصناعة والدين والآداب والعلم وكل ما يحمله القرب الآن
الى قاب افريقيا واستراليا وجزائر الباسيفيك ان لم اقل الى قلب اسيا والاصقاع النائية
منها . وكل هذه الجاليات كانت سامية او تتكلم باللغة السامية . فمن اين جاءت هذه الشعوب
العظيمة القديمة واين كان مهدها الذي نشأت وترعرعت فيه الى ان شبت وبلغت وهاجرت
واستعمرت . وبعبارة اخرى اين كان المهدي الذي نشأنا فيه نحن بقية اولئك الشعوب القديمة
العريقة في الدين والتمدن والعلوم والصنائع والمهاجرة والاستعمار وما الى ذلك من ظواهر
العز والمنعة والتغلب التي هي من دلائل التفوق والارتقاء في العقل وايضاً في الهمة والاقدام
الذين ما بعدها همة ولا اقدام

مضى على العالم قبل تاريخنا المسيحي خمسة وعشرون قرناً وصلت اليها اخبارها كتابة
وآثاراً وما سوى ذلك قرون لا يعلم عدتها الا الله وليس في العالم المعروف حينئذ اعني
اوربا وافريقيا والشرق الادنى تجارة الا وهي في يد هذا الشعب الذي يتكلم باللغات
السامية ولا مهاجرة او استعمار الا والمهاجر والمستعمر جاليات منه ولا صناعة ولا زراعة
راقية الا ان يكون هو الصانع والزارع بل لم تكن صولة الا صواته ولا تمدن الا تمدنه
ولا علم ولا آداب الا في شعوبه وقبائله كما تشهد آثاره الخالدة الباقية الى الآن وستبقى دليلاً
على عظمة هذه الامم وشاهداً عدلاً ينطق عنها ويشهد بما كانت لها من الحيلة والوصابة
والولاية على التمدن القديم فضلاً عن التأثير العظيم الذي اثرته فيه رأساً ومباشرة ومن
بعضه ما تركته لنا يد الدهر اثرأ بعد اهله في خرائب بابل واشور واليمن وفي مصر ايضاً
والشام . واغلبكم ايها السادة والسيدات الذين تسمعون كلماتي هذه الليلة من بقايا اولئك

الاقوام الذين كان من صفهم ما قد سمعتم ولا يزال فيكم على ما اعتقد عروق تنبض من
هتهم واقدامهم وتفوقهم . انما بهمكم اذن او على الاقل اما يجذب سمعكم واصفاءكم الكلام
او البحث في المهدي الذي نشأ فيه اباؤكم الاولون والمواطن الاولى التي تفرقوا منها تجاراً
ومستعمرين وغزاةً فاتحين . بلى انه يهكم ذلك والا فانتم براء من اولئك الاقوام وبراء
مما كان فيهم من الهمة والاقدام واقل ما يقال فيكم انه ينقصكم التشوف الى بلوغ بعض
ما كان لهم من التفوق والارتقاء في مراقي العز والشرف . ولكن يا بني الله والواقع ان
يتوجه اليكم شيء من هذه الهمة الشعاء فاسمعوني اذن سمع الله لكم وانتهوا الى سلسلة
ابحاثي انتبه اليكم طرف الدهر الراقدينه وكرمه ان شاء الله

لا يسعني الوقت ان اذكر لكم المذاهب التي ذهب الى كل منها فريق من اكبر علماء
الآثار في الوقت الحاضر فاني لو فعلت ذلك لاقتضاني الامر ان اخطب فيه سبعة ايام
متوالية كل يوم نصف ساعة على الاقل وهذا مما لا تقوون على احتماله ولا اقوى انا ايضاً على
القيام به فيما لو اردته . المحت سابقاً الى الشعوب التي تركت ما تركت من الآثار العظيمة في
ممالك بابل واشور وان هذه الشعوب كانت تتكلم فرعاً من اللغة السامية واقول هنا ايضاً ان
الآثار تدل دلالة صريحة ان قد كانت في تلك البقعة امم اخرى سبقوهم الى عمارة تلك
البلاد منهم أمة السومريين وكانت لغة هؤلاء الاقوام السابقين لغة اخرى بعيدة
كل البعد عن اللغة السامية وكذلك كانت عوائدهم واخلاقهم وآدابهم . وهؤلاء الذين
تغلبوا عليهم جاؤوا البلاد فاتحين وبنوا على انقاض تمدنهم ذلك التمدن السامي العظيم الباقية
آثاره الى اليوم . فمن اين جاء هؤلاء الفاتحون . لا يمكن ان يكونوا قد جاؤوا من شرقي
الفرات ودجلة ولا من شرقي خليج فارس ولا من شمالي هذه المواضع لاننا لا نعلم ولا
هناك آثار على الاطلاق تدل انه كان في تلك الاصقاع المذكورة شعب سامي بل كانت
البلاد ولا تزال يسكنها الماديون القدماء والفرس ومن سواهم من امم الاكراد والتركان او
من قاربهم من فصائلهم وشعوبهم . وعليه فان هؤلاء الغزاة الفاتحين الساميين او الذين
يتكلمون اللغة السامية لم يأتوا الى بلاد ما بين النهرين من الجهات التي ذكرناها

وكذلك يقال انهم لم يأتوها من اسيا الصغرى وشطوط البحر الاسود ولا من البلاد
التي تناخهما لان لغات اهل هذه الاصقاع واخلاقهم وعوائدهم وآدابهم وتمدنهم بعيدة كل
البعد عن لغة واخلاق وعوائد وآداب وتمدن اهل بابل واشور المتكلمين باللغة السامية
والناشرين لواء التمدن السامي واخلاق اهل وعوائدهم وآدابهم وانواع دياناتهم . فلم يبق
لنا اذن الآن الا القول انهم جاؤوا من جهة الجنوب اعني البلاد العربية . فالبلاد

العربية هي اذن مواطن الاشوريين والبابليين الاولى والمهد الذي نشأوا فيه قبل ان قدموا غزاة وفاتحين الى بلاد ما بين النهرين وهي البلاد التي تركوا لنا فيها آثارهم الخالدة وآداب لغتهم السامية مكتوبة على اوراق من الاجر . لغة ما زالت لغة التجارة والادب والعلم والدولة في العراق والشام ومصر احيالا بعد انقراض دولتهم واستيلاء دولة الفرس الاولى على هذه الاصقاع والممالك بل كانت لغتهم هذه لغة لدولة الفرس الرسمية حتى في آسيا الصغرى حيث كان لغة اليونانية والآداب اليونانية ما كان من النفوذ والانتشار

اذا حولنا نظرنا عن شعوب ما بين النهرين الى الشعوب او الفصائل التي استعمرت بلادنا هذه من شمالها الى جنوبها ومن غربها على ساحل المتوسط الى بادية السماوة والحجاز رأينا لغة تلك الشعوب عن آخرهم لغة سامية بحتة . اما العمالقة في الجنوب ومن على شاكلتهم من الشعوب المتاخمة العربية فقلما يشك في أنهم جاؤوا رأساً من البلاد العربية . والعقل هنا يتفق مع النقل فان مؤرخي العرب اجمعوا عن آخرهم ان عمالقة الشام القدماء جاؤوا اليها عن طريق الحجاز . واما العبرانيون واخوتهم الادميون وابناء عمهم العمونيون والموابيون فرحلوا الى سوريا في عصر متأخر مما بين النهرين ومثلهم اراميو دمشق ايضاً فانهم وان كانوا قد سبقوا العبرانيين الى الرحلة والاستيطان في داخلية البلاد لا يخرجون عن أنهم مثلهم اي من قح الساميين ولذلك فواطن آباؤهم الاولى كانت البلاد العربية ومنها رجعوا الى ما بين النهرين وبعد استيطانهم هناك مدة لا نعلم مقدارها عادوا الى الرحلة فانتهت بهم الى سوريا ولا شك انه كان يضاف اليهم من حين الى آخر شراذم من قبائل البلاد العربية ومن شمالها يرحلون اما تجاراً او على قصد التجارة اولا فتطيب لهم البلاد ويزعمون على الاقامة فيها . وليس هذا بالامر المستغرب الذي لا يقبله العقل ولا هو بالنادر الذي لم يسمع بمثله او لم يتكرر في الايام بل قد تكرر مراراً . ولنا شواهد كثيرة نبدأ باقربها من زماننا الحاضر . من ذلك ما كان اوائل عهد المسيحية فان الفسانيين هاجروا الى الشام من اليمن وبعد كثير من الحن والترحال القوا عصا الاقامة في الشام وحواران واتصلت مواطنهم من هناك الى الفرات شمالاً . وكان رحل من قبلهم ايضاً الساجيون والضجاعة والتوخيون والقوا عصا اقامتهم بالشام وفلسطين شرقي البحر الميت وجنوبية . ومن قبل ذلك ايام عزرا ونحميا كان جيش العربي يناصر طوييا العموي وسنبلط الحوراني على اليهود في اورشليم . ومن قبل ذلك في اثناء غزوات نبوخذ نصر ملك بابل كان ارميا النبي يتنبأ عن هلاك قيذار وبنو المشرق الامة التي لا مصاريع ولا عوارض لها وتسكن وحدها . الامة الكثرية الجمال والماشية المقصوفة الشعر مستديراً . اوصاف تدل على ان

ارميا النبي كان عارفاً بالعرب كما نعرف نحن الآن اهل اورشليم او اهل السلط ان لم يكن اكثر من ذلك. ومن قبل ارميا باحيال في ايام ايليا النبي اهاج الرب على يهورام ملك يهوذا صهر آخاب ملك اسرائيل روح الفلسطينيين والعرب الذين بجانب الكوشيين فصعدوا الى يهوذا واقتحموا وسلبوا كل الاموال الموجودة في بيت الملك . وقبل ذلك ايضاً في ايام سليمان كان شعراء اسرائيل يرفون خيام قيدار ويشبهون بها في اشعارهم . بل في ايام شاول كان العمالقة وبنوا المشرق مناخين لاسرائيل . واقدم من ذلك بكثير اعني في ايام جدعون كان ذبح وصلناع وغراب وذئب ملكين من ملوك المديانيين والعمالقة وبنو المشرق واميرين من امراءهم . وكان هؤلاء الاقوام يصعدون بمواشيهم وخيامهم ويحيثون كالجراد في الكثرة وليس لهم وجلهم عدد فينلقون غلة الارض من حوران فنانزلاً كل شرقي الاردن حتى نجيّة الى غزة

بل مخالطة عرب بلاد العرب لسوريا يتصل عهدها بايام ابراهيم وما قبله ايضاً فان اسمعيل بن ابراهيم سكن بينهم وكذلك اولاده من قطورة. وكانت طريق التجارة بين مصر والعراق من ذلك الحين وما قبله في ايديهم. وحويلة التي يذكرها سفر التكوين في الكلام عن مواطن الاسماعيليين لا يبعد على ما ارى ان تكون بلد ابن الرشيد في جبل شمر المعروفة اليوم بمائل ولا تزال المشابهة بين الاسمين الاسم القديم والاسم الحالي واضحة جداً بحيث لا تخفى على متأمل . وقد ذكرت ما ذكرتُه بياناً لشدة ما كان من المخالطة بين سوريا وبلاد العرب من اقدم الازمنة التاريخية لحد هذه الساعة مما يستدل منه على ان العربية ما زالت من اقدم الازمنة المعروفة ترمي بتموجات من بينها حيناً بعد آخر على اطراف سوريا وانه وان يكن معظم شعوبها من الفرع السامي العراقي فقد كان كثير من بينها ايضاً في ذلك الزمان من الفرع السامي العربي . ارجح ان الرفائين في عشتاروت قرنايم والزوزين في هام والاييمين في شوى قرنايم والحوريين في جبلهم سفير الى بطمة قاران التي عند البرية والعمالقة في عين مشفاط التي هي قادش والاموريين في حصوت تامار والعناقين في حبرون كل هذه الفصائل كانت من الفرع السامي العربي . ولا يستبعد ذلك فان الدولة التي كانت تستولى على مصر في ايام ابراهيم وتعرف بالملوك الرعاة او الهكسوس كانت من الفرع السامي العربي وجاءت مصر عن طريق بلاد العرب . وهؤلاء القبائل والشعوب الكنعانية كانوا معاصرين لها والارجح اهم جاؤوا معها وحلوا في سوريا في اثناء الزمان الذي حدث فيه تلك الدولة بلاد وادي النيل ان لم يكن قبل ذلك « يسبع سنين » ومن اغرب الاتفاقات التي عثرت عليها ان الاحبرون او الخليل اليوم على ما ذكره

الاستاذ العلامة سايس كانت تسمى بلاد خيرى . وابن خلدون يقول نقلاً عن الطبري ما يفهم منه ان خيرى هو بطن من بطون عاد وان رئيسهم او احد امرأهم جلهمة ابن خيرى كان في جملة الوفد الذي ارسلهم قوم عاد الى مكة في دواتهم الاولى للاستسقاء لهم وكانوا قد احتبس عنهم المطر ثلاث سنين فجاؤا الوفد ونزل على معاوية ابن بكر العادي بداعي أن هزيمة اخت معاوية هذا كانت عند نعيم ابن هزال احد الوفد . وبعد ان اقاموا اشهراً في ضياقتهم انبعثوا ومضوا الى الاستسقاء وتخلّف عنهم لقمان ابن عاد ومرثد ابن سعد . فلما رجعوا الى معاوية ابن بكر لقبهم خبر مهلك قومهم ومن جملتهم الخلجان ملكهم هلك بالريح فيمن هلك . قالوا كانت الريح من الشدة بحيث تقلع الشجر وترفع البيوت وكانت تدخل ايضاً تحت الرجل فتخمله الى الحياض وما زالت كذلك ثمانية ايام حسوماً حتى تقطع القوم وهلكوا عن آخرهم

واذا عارضنا هذا النقل بما ذكره العلامة سايس ترجح معنا الحكم ان سكان حبرون الخبيرين هم قبيلة من القبائل العربية الجنوبية رحلوا في جملة من رحل لفتح ايام الدولة العادية الاولى واحتلوا حبرون وكانوا فيها معاصرين للملوك الرعاة وقد سبقهم الى الاستيطان والتجارة في تلك الاصقاع (١)

ومثل ذلك في الغرابة والدلالة ان لم يكن اغرب وادل ان بلد امير هي من بلاد اليمن والمشابهة ظاهرة بين اميريين أي من بلاد اميرم وبين الاموريين اشهر قبائل كنعان القديمة الذين اورث الله ديارهم ومساكنهم لبني اسرائيل . وكذلك نقول في حورة مدينة كندة القديمة او الحوار مدينة الاصجيين من حمير فان المشابهة تامة بين المنسويين الى احد هذين البلدين وبين الحوريين سكان ادوم وجبال الشراة قديماً قبل ان نزل عليهم عيسو ابن اسحق بن ابراهيم الخليل * على ان ما ذكرناه في شأن الاموريين والحوريين والخبيريين هو على وضوحه مبني على الظن فان تكشفنا لنا بلاد اليمن عن كتاباتها باخط المسند بما يرجح هذه الظنون او يثبتها فيه والا فتبقى اقرب الى القبول من غيرها من الظنون والاقاويل التي عثرنا عليها الى الآن

(١) جاء في سفر المدد ان حبرون بنيت قبل صوعن بسبع سنين . فاذا عارضنا وهو المرجح ان قبيلة خيرى العادية كانت من جملة القبائل التي جاءت مع الملوك الرعاة وانها اخذت حبرون داراً لها فتكون حبرون ضرورة اقدم من صوعن لار صوعن عاصمة الرعاة لم يتخذها هؤلاء عاصمة لهم الا بعد حرب سنين لا تقل عن السبع في الراجح اخضروا في انبائها سكان البلاد من حبرون وجنوبي حبرون الى صوعن وهذه الاشارة ظاهر دلالتها كل الظهور وتؤيد القول ان الخبيريين سكان حبرون (على ما ذكر العلامة سايس) هم احد قبائل الملوك الرعاة كما ان القول في اصل الخبيريين على ما سر فيه تمايل ظاهر وبرهان واضح على صحة هذه الاشارة التاريخية

يبقى علينا من شعوب كنعان الفينيقيون اهل التجارة والاستعمار في العصور الاولى قبل التاريخ المسيحي . الشعب الذي لم يقم مثله في همته ونشاطه واقدامه ومياله الى الرحلة والاستعمار في كل من نعرفهم من الشعوب القديمة بل كل منصف يتردد في تفضيل شعب آخر عليه الى الآن وان كان شعب بريطانيا العظمى . وعندي ان بني بريطانيا اهل الاستعمار اليوم واهل التجارة والسودد انما يحركهم اليه من التوسع في التجارة والاستعمار بقايا ما ورثوه من هؤلاء الفينيقيين العظام فانهم اعني الفينيقيين في الراجح استعمروا كثيراً من بلاد الانكليز واختلطوا باهلها قبل العصر المسيحي . اني اقول ما اقوله الآن الا كما يقول المؤرخ او الاثري الثقة بل كما يقول الخطيب على سبيل التهويل اسكن في تهويله شيئاً من الصحة والحقيقة او شبه منهما

من اين جاء هذا الشعب العظيم الى سواحل سوريا واين كانت المواطن التي توطنها هؤلاء التجار المستعمرون قبل ان بنوا صيدون العظيمة وصور ملكة البحار وتاجرة العالم * ان لغتهم من لغة الفرع الارامي اعني لغة الذين شيّدوا بابل وارك واكد وكنة . ولكني لا ارجح انهم جاؤوا من بين النهرين من حيث جاء انسابهم العبرانيون والعمونيون والواييون واعني بالنسب هنا النسب في اللغة لا في الآباء . فن اين جاؤوا اذن . ان اليونان ينقلون عن مواطن الفينيقيين الاولى خبراً لا نعلم ممن اخذوه ولكنه جدير بالقبول وهم يقولون انهم جاؤوا من خليج فارس من بلاد البحرين . وبلاد البحرين على ما تعلمون جزءاً طبيعياً من بلاد العرب . هناك اي في بلاد العرب كانوا اولاً . وفي بلاد البحرين على شواطئ خليج المعجم من القطيف الى شرجة وراس منصدم حيث جزيرتا كشم واورمز كانت مساكنهم الاولى . وارجح انهم ارتحلوا من هناك اولاً الى صور وصيد في عمان واليمن . ولولا مخافة ان يقال اشتط هذا في رأيه لقلت ان القوم غزوا في ارضهم . غزاهم احد الملوك الاقدمين كما غزاهم يختصر من بعد في بلاد الشام واشتدت عليهم وطأته ووطأة دولته من بعده فهاجروا فرقة بعد اخرى فمنهم من هاجر الى صور في بلاد عمان ومنهم الى صيد في جنوبي اليمن بين زبيدة ومخا كما مرّ ثم من هناك الى الدلتا في مصر اذا صح ما يقال ان في الدلتا آثاراً منهم . ثم من هناك الى شطوط فينيقية . والذي اراه بناءً على ما ذكرت ان صيدون تصغير صيد باللغة الارامية او نسبة اليها فان كان الاشتقاق من التصغير فهم سموها مدينتهم بهذا الاسم اي سمو البلد الذي نزله اولاً باسم البلد الذي كانوا فيه وفرّقوا بينهما بالتصغير طبقاً للواقع لان البلدة التي بنوها كانت اصغر من التي هاجروا منها . وان كان الاسم من النسبة فالتسمية كانت من القوم الذين نزّلوا بينهم كما يسمّى

من هاجر صيدا الى قرية من قرى مرج عيون او لبنان مثلا بالصيداوي وهو معروف شائع من الوف سنين الى الآن . فان قيل لم زعمت انهم هاجروا اولاً الى عمان وجنوبي اليمن . قلت لانه في بلاد عمان اسم صور ولا يزال في جنوبي اليمن شمالي باب المنذب اسم صيد بلد وواد وجيل وتقبل (اي طريق صر تكاد لا تسلكه الدواب) ولا يزال قوم يعرفون بالصيد اي من اهل صيد متفرقين في غير مكان من بلاد اليمن . وهذه الاسماء عريقة في القدم مثل كل اسماء البلاد العربية ولا يخبرنا التاريخ ولا التقليد ان اهل هذه الاماكن رحلوا اليها من بلاد اخرى بخلاف صور وصيدا في فينيقية فانا نعرف من التقليد المتواتر ان لم نقل من التاريخ ان اهل صور وصيدا جاؤوا اليهما من البلاد العربية . والذي نعرف عن العرب (وعن غيرهم من الامم ايضاً) انهم اذا استجدوا داراً وعمروا فيها مدناً سموها تلك المدن باسماء مدنهم الاولى التي كانوا فيها . ولا يزال كثير من مدن اسبانيا التي استجدها العرب شاهداً على ما ذكر فانهم سموها باسماء مدن الشام التي كانوا فيها اولاً

فان قيل ان لغة الفيثيين هي من الفرع الآرامي فكيف مع هذا رجحت انهم جاؤوا من بلاد العرب . قلت ان مواطنهم الاولى كانت في البحرين على الخليج الفارسي . وهذه المواطن ابدأ يتنازعها الفرعان الساميان العربي الى الجنوب والغرب والآرامي الى الشمال واكثر ما كان النفوذ الغالب فيها النفوذ الآرامي . ومن المتواتر على لسان العرب ان اهل البحرين نبط استعربوا . ويؤخذ من هذا انهم كانوا يعلمون ان النبطية اي الآرامية كانت الغالبة في الازمنة الاولى على ارض البحرين . وفي هذا تعليل مقبول على ان اهل صور وصيدا هاجروا من بلاد العرب وكانت مع ذلك لغتهم من الفرع الآرامي بقي علينا الاحباش على العدو الثانية من البحر الاحمر فان فريقاً منهم يتكلمون لغة هي اقرب اللهجات السامية الى اللهجة العربية وهم الغالا (على ما ارجح) وفريق آخر وهم الامهريون يتكلمون لغة تداخلت فيها اللغة السامية ولكن كثرتها لغة الاقوام الاصليين وهي لغة حامية محضة حتى غلبت عليها فلا يظهر فيها العرق السامي الا بعد الروبة وامعان النظر . واذا نظرنا الى اولئك الذين يتكلمون الحبشية العربية رأيناهم قلائل عدداً بالنسبة الى الامهريين وبالنسبة ايضاً الى بقية امم الحبشة وافريقا الذين هم من اصل حامي . ولا يعال ذلك تعليلاً يقبله العقل الا بان العرب في زمن بعيد جداً ترحت منهم نازحة كثيرة العدد فحفظت لذلك لغتها عن ان تتغلب عليها لغة الحاميين الافريقية . لكن نشط من هذه النازحة ناشط او جاء هذا الناشط من البلاد العربية رأساً فسكن بلاد

الاماهرة وكان له عليهم الغلبة والسودد لارتقائه في سلم المدينة ثم امتزج مع الأهلين على عادة الساميين. ولقلة عدده كثرة القوم ففرقت لذلك لفته وملاحة في لغة الاماهرة وملاحة حتى لا يكاد يبين. ومثل ذلك يقال في لغة مصر القديمة فان اهل الثقة من علماء اللغات يرون في لغقوا دي النيل عروقاً او تكييفات احدثتها. قاناة او مجازة من اللغة السامية فيها ولا يعلل ذلك الا بان هذا الجنس يمثل المدينة الاولى في العالم كانت له غلبة يوماً على مصر وهذه الغلبة في الراجح اقدم من غلبة دولة الرعاة بكثير. ثم تلا هذه الغلبة غابات. منها غلبة الهكسوس المعروفة في التاريخ والناطقة بها آثار مصر. ومؤرخو العرب مع اختلاط اخبارهم وكثرة التشويش فيها يشف كلامهم ونقولهم عن غير غلبة للعرب على بلاد الفراغة. من ذلك غلبة او غابات في ايام الدولة العادية وغلبة في ايام الدولة الحميرية او السبائية او النوية وخلاصة القول ان اللغة السامية المنتشرة كانت يبلاد العرب مهدها الاول الذي نشأت فيه قبل الفتح الاسلامي بين الفراتين وخليج العجم شرقاً وشمالاً والنيل والبحر المتوسط غرباً وبحر العرب جنوباً مع ما يباحق بذلك من شواطئ شمالي افريقية. فبلاد العرب هي اذن مهد الجنس السامي ومنشأ المدينة الاولى ولا يزال فيها على رغم ظواهر الانحطاط والتأخر البادية عايبها كل مقومات تلك المدينة ولا يمنع من ظهورها الا ضغط عليها من الخارج لا يلبث ان يزول عنها حتى تسطع شعلتها المرة الثالثة كما سطعت المرة الثانية ايام الفتوحات الاسلامية

